خان الرز ، صيدا ، ١٩٤٠ .

هذه القصة ليست عن الحمير ، مع انها قد لا تخلو من جحش او بغل. ولكن الحيوانات التي في هذه القصة لم تكن تسكن في خان الرز ، او على الاقـل لم تكن كلها تسكن في خان الرز .

دعني اؤكد لك اولا انه من السهل جدا ان تجد خان الرز . فهو على قـاب قوس او قوسين من ساحة السمك، تجاه «الجمرك» تماما. والجمرك بناية نظيفة بجانب البحر مطروشة بلون زهري وقد كتب على واجهتها بالفرنسية كلمة « دوان ». اما ان كنت لا تعرف اين ساحة السمك او الجمرك ، فخان الرز على رمية حجر من المطعم الشرقي (هذا اذا جلبت معك حجرا من القرية ، لانه لا توجد احجار قرب المطعم الشرقي) ، وهو على بعد شربة سيجارة من مدرسة المطران (هذا اذا لم تكن طالبا في مدرسة المطران ، حيث التدخين ممنوع منعا باتا) . واذا كنت لا تعرف اين يكون المطعم الشرقي او مدرسة المطران فانت شك تعرف مدرسة الامريكان او الفرير ، او المكان الذي كانت به هاتان المدرستان تقفان متلاصقتين سنة الاربعين . فان بدأت هناك ، كان عليك ان تمشي على طول الشارع الرئيسي صوب الشمال الى ان تصل الى الكوع الكبير حيث يقف رجل البوليس . عند ذاك لاتدور مع الشارع بل تبقى سائرا بخط مستقيم الى ان تصل الى صف البنايات الذي يفصل بينك وبين البحر ، ثم تنعكف الى اليسار وتدخل شارع السمك. وبعد ان تسير حوالي مائتي متر في شارع السمك تجد بناية الجمرك الى يمينك وتجاهها ، الى يسارك ، بوابة كبيرة ، عالية ، واسعة ، بدون درفات ، هي بوابة خان الرز .

هذه الطريق سارها بشير حنا لأول مرة في يوم من اواخر ايار . ففي تلـك السنة كان بشير ساكنا في بيت الصهريج قرب مدرسة الامريكان حيث كان يتلقى علومه. ولم تكن تروق له الاقامة هناك كثيرا ، لان زميليه جورج وفؤاد الصهريج كانا قد قـصرا في صفيهما في السنة السابقة وتوقفا عن الدراسة ، وبقي هو وحده يذهب الى المدرسة . اما الآن فهو آتٍ الى خان الرز ليرى عصام ونصير الخردل ويسألهما اذا كان من الممكن ان يقـاسمهما غرفتها في السنة القادمة .

وقف في بوابة خان الرز ونظر الى الداخل . كانت هناك باحة كبيرة مستطيلة تحيط بها من كل جانب بناية ضخمة شاهقة ، وتغطي ارضها طبقة سوداء هي مزيج من التراب والتبن والسماد . وكانت الشمس قد اشرقت حادّة ذلك النهار فجفّفت ارض الباحة من بول الحيوانات وكادت تطهرها من الروائح .

التفت بشير الى يساره فرأى درجا ، او بقايا درج، هو من العلوّ بحيث ظنّه لا ينتهي الا في السماء . وكانت زمرة من الاولاد تلعب في زاوية من زوايا الباحة ، وبينهم عصام الخردل، فهرول نحوهم مناديا اسم عصام. ولكن قبل ان يبلغهم اذا بحجر يعنّ مثل الرصاص يمر قرب اذنه اليسرى على بعد لا يزيد على الخمسة سنتمترات ، ثم يتابع سيره حتى يلتطم بالحائط وينفجر الف قطعة . فصاح الاولاد بمزيج من الضحك والهلع : « ثير ! »

وظهر سمير من تحت الدرج حيث كان معتصما . كان يافعا ممتلىء الجثة ، ضخم الرأس ، ذا ساعدين قويين وعينين تقدحان شررا . واطلق النار من فمه على زمرة الاولاد بشكل مسبّات راحت تنزّ في فضاء الخان كما أزّ الحجر في اذن بشير. كان سمير يلثغ في لفظ السين والصاد فيلفظهما ثاء ، وهذا كان مصدر تفكهة للاولاد ، الى ان استبد به الغضب واستبد بهم الضحك .

كانت البناية الشاهقة تتألف من طابقين فقط ، لكن الطابق الواحد يزيد علوّه على علوّ ثلاثة طوابق من البناء الحديث . ولهذا لما سأل بشير عصاما : « اين غرفتكما ؟ » رفع عصام وجهه الى اعلى واشار الى الطابق الثاني. فقال بشير: « هناك ؟ في السماء؟ » فضحك عصام جذلا وقال : « اجل . تعال فأريك غرفتنا في السماء » .

تسلقا الدرج العالي ووصلا الى صف من الغرف تمتد امامه شرفة طويلة من الباطون الاملس ، هي كل ما كان يحويه الخان من آثار القرن العشرين . فالحيطان كانت من الخارج رمادية مجرمشة وقد تقشّر عنها طلاء الكلس في اغلب الامكنة . وكانت كلها متشققة ، بحيث ان بقعا كبيرة من الرطوبة كانت ترقط كل غرفة من الداخل . اما الارض والسطح فكانت تتكون من عدسات ، لان البناية شيدت قبل ايام الترابة الافرنجية ، بل قد يعود عهدها الى زمان الفينيقيين ، او على الاقل الى ايام الرومان .

كانت غرف الطابق الثاني كلها على طراز واحد ، حيطان تزيد سماكة الواحد منها على المتر ، ولكل غرفة باب ضخم ذو درفة واحدة ونافذة صغيرة محددة بجانب الباب . وكان يسكن في تلك الغرف، زيادة على اسراب البق والنمل، حوالي مائتي آدمي وآدمية، من الطبقات الفقيرة التي لا تستطيع العائلة منها ان تدفع اكثر من خمس او ست ليرات شهريا اجرة سكن . فهذه غرفة مليئة باحد رجال الجندرمة يزيد عدد عائلته على السبعة ، وتلك اخرى تؤوي بوليسا بلديا وزوجته واولاده الاربعة، وثالثة تعج بعائلة جندي ينتمي

الى الجيش الفرنسي ، جندي من الطراز الذي كان مدة الحرب يعبد الجنرال ديغول ويصلي له هو وعائلته .

وبينما كانت تلك القرية كلها تعيش على نصف متر من الماء دون ان يموت احد فيها من العطش ، فانه لم يكن للمائة نسمة جميعا سوى بيت خلاء واحد فقط ، ليس له الا جدار واحد يتكون من قطعة صغيرة من التنك . لهذا كانت اولى ضرورات الحياة في خان الرز ان يكتسب المرء مناعة قوية ضد الخجل ، وان تمسي نظراته الى وظائف جسده الطبيعية مثل نظرة الحيوانات التي كانت تشارك سكان خان الرز منزلهم ، محتلة الطابق الاسفل.

ولكن الانسان ضعيف . فكلما تقدم خطوة عن ابن عمه الحيوان ترك مزية من مزايا القوة واستبدلها بنقطة ضعف جديدة . لهذا لم يتمكن سكان خان الرز من العودة الى الحيوانات عودة تامة ، ففرضت عليهم الضرورة قانونا غير مكتوب ، هو ان كل قادم الى بيت الخلاء يجب ان يعلن عن قدومه بالتصفيق . وهكذا تغلبوا على صعوبتهم ، وهذا يعني انه لم تكن تنشب بينهم معركة طويلة من قارس الكلام الا مرة واحدة في الاسبوع فقط. وبما انهم حلوا مشكلتهم ، فلنتوقف عن الحديث في هذا الموضوع المقرف ، ودعنا لا نتساءل ماذا كانت تفعل المرأة او الصبية عندما كانت تركض مصفقة الى بيت الخلاء فتسمع صوت ولد صغير يقول : « في حدا » .

في السنة المدرسية ٤٠–٤١ كان يسكن في خان الرز ، زيادة على اولاد الخردل وبشير حنا ، جمهور من الطلاب تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة . وكانوا ينتمون الى جميع مدارس صيدا ، اما اهلهم فقد كان نصفهم من القرى المجاورة لصيدا والنصف الآخر من القاطنين الدائمين في خان الرز .

وذات مساء ، حوالي التاسعة ، دبّت حركة غريبة في غرفة صابات ام وديع المعّاز ، بدأت بحيث لم يشعر بها احد ، ولكن لم تلبث ان امتدت الى خارج الغرفة امتداد اللهب وشغلت سكان الحي طيلة ذلك المساء . فقد ارتفع صوت صابات قويا صاخبا ، وأعلنت ان احدهم قد سرق من غرفتها « خمسو تلتين ورقة » ، اي خمسا وثلاثين ليرة . وانبرت تمطر اللعنات على السارق المجهول حتى ارتوى سكان الخان كما ترتوي الارض عند زخّ المطر.

ولم يكن يخامرها شك ان السارق واحد او اكثر من الاولاد الذين كانوا جيرانها . وبعد ان استنفدت قواها العصبية والصوتية ، وادركت مرغمة انها لن تسترجع دراهمها بهذه الطريقة حتى ولو صرفت باقي عمرها بالصياح ، عمدت الى اتخاذ اجراءات عملية ، فذهبت الى دائرة البوليس . وبعد حوالي نصف ساعة اتى اثنان من رجال البوليس الى

خان الرز وطافا في غرفه واستجمعا كل الاولاد – كل الاولاد الذين كانوا من القرى ولم يكن اهلهم يسكنون معهم – وقاداهم الى الدائرة .

وامتلأت غرفة الانتظار في دائرة البوليس بالاولاد . كان هناك رفعت الخردل وحنا توما وعصام ونصير الخردل وبشير حنا وسليم الضبع واخوه الصغير كريم ، وغيرهم . كان هؤلاء كلهم من ابناء القرى ، اما من ابناء البلد فلم يكن هناك سوى ولدي الجندي الذي كان ينتمي الى الجيش الفرنسي ، نقولا وقسطندي ؛ هذان كانا هناك لان والديهما لم يكونا في البيت عندما ذهب رجلا البوليس يستجمعان الاولاد في الخان . ولكن سرعان ما وصل الجندي والدهما نفسه الى الدائرة بينما كانت زمرة الاولاد لا تزال تنتظر مصيرها في غرفة الانتظار والشرطة يتشاورون فيما بينهم في الداخل . فدعا الجندي ولديه اليه وقادهما الى البيت .

اما الباقون الذين لم يكونوا فوق كل شك ، لان والديهما كانوا يرتدون بزرا عسكرية ولا كانوا معهم ذلك المساء ، فقد بقوا في غرفة الانتظار تحت جو من الرهبة ما تجاسر احدهم بتعكيره الا همسا . وفتح الباب ، وظهر في الداخل شرطي جالس على طاولة كبيرة ، وخرج شرطي آخر يسأل كل ولد بمفرده عن اسمه بتلك اللهجة العسكرية الحادة التي بها كان رئيسه قد اعتاد ان يبهدله كلما تكلم اليه . كان الشرطي الباسل يخاطب الاولاد كما لو ان كل واحد منهم قد ارتكب جريمة شنعاء هي كون اسمه فلانا ؛ فهو اذاً لم يسألهم عن اسمائهم ، انما انتزعها منهم انتزاعا .

وعندما رأى بشير الشرطي الجالس الى الطاولة الكبيرة في الداخل عرفه حالا . كان اسمه رئيف الصهريج ، وكان واحدا من ابناء الصهريج الذين صرف في بيتهم السنتين المدرسيتين الفائتتين . وتذكر بشير يوما عاد فيه من القرية فرأى رئيفا واقفا امام المرآة الكبيرة في درفة الخزانة ينظر الى بزته العسكرية الجديدة التي كان قد لبسها اول مرة ذلك اليوم . ثم وصل اخوه جورج وقال بشير :

« شفايت ؟ عمل بولووووس ! » (ارأيت اصبح بوليسا !)

كان جورج في سن بشير ، اما رئيف فقد كان في حوالي الخامسة والعشرين . وقد صرف مدة طويلة يبحث عن عمل قبل ان اصبح شرطيا . وقد ترك رئيف تأثيرا كبيرا على اخويه جورج وفؤاد ، فقد اكدا مرارا لبشير ان يدي رئيف اقوى من كلابتي حديد ، وانه يستطيع ان يسحق رأس اي انسان ان مسكه وضغط عليه . ومن مغامراته الشهيرة انه عندما كان صغيرا غضب من والديه لانهما ارادا ان يبقياه في المدرسة بعد سن الثانية عشرة ، فهرب من البيت ، والقى بنفسه في البحر وبقي يسبح حتى وصل الى فلسطين . هذه كلها كانت بالنسبة لهما حقائق راسخة مقدسة لا يجوز الشك بها ، وكلها حدثت منذ

سنين عديدة عندما كان جورج وفؤاد لم يريا النور بعد. واستيقظ بشير من هذه الذكريات على طعقة صوت الشرطي يسأله :

« وانت شو اسمك ؟ »

فأجاب بنبرة قوية، تختلف كل الاختلاف عن الاصوات التي بها اعطى زملاؤه اسماءهم ، وكأنه يتحدّى الشرطي او يقلّد صوته :

« بشير الجرس » .

كان الاولاد جميعهم يعرفونه باسم بشير حنـا ، ولم يكن احد منهم قد سمع منه كلمة الجرس قبـلا . لهذا ارتسمت على وجوههم اشارة طفيفة من التعجب ، وتمتم احـدهم بين اسنانه : « بشير حنا » . واذ سمع الشرطي ذلك صاح :

« احكِ الصدق لئلا امزع رقبتك . بشير الجرس او بشير حنا ؟ »

فاجاب بشير بصوت عال ، واضح ، متّزن ، ولكنه خلا من لهجة التحدي :

« بشير حنا الجرس . حنا هو اسم ابي » .

« ولماذا تسمي نفسك بشير حنا اذا كنت بشير الجرس ؟ »

« لاننا في ضيعتنا لا نستعمل اسم العائلة بل اسم الاب » .

« في ضيعتكم ؟ وهل تظن نفسك في ضيعتكم الآن ؟ »

وضع الشرطي كل مـا في صوته من الاحتقار بكلمة « ضيعتكم » ، ثم شرع يضحك ساخرا ويردد : « في ضيعتكم ! » وشرعت عدوى الضحك تنتقـل الى الشرطي الآخر فالى باقي الاولاد . ولكن بشير بادر واجاب دونما خوف :

« لا . ولهذا قلت لك ان اسمي بشير الجرس » .

فسكت الجميـع ، ونظر الشرطي من حوله غير عالم ما يقول ، واستمر ينتزع اسماء الاولاد من افواههم . وعندما انتهى دخل الى زميله وهمس :

« ماذا تقول يا رئيف افندي ؟ »

فاجاب رئيف افندي بصوت عالٍ :

« اصرف الجميـع الا سليم الضبـع والامير بشير » .

هذه المرة انفجر الجميـع بالضحك دون ان يستطيـع بشير ان يحمي نفسه ، خصوصا وان باقي الاولاد قد سروا لانهم قد برئوا وافرج عنهم .

اما لماذا ابقي على سليم الضبع فذلك لانه صدف ان كان يوجد شاب اسمه خليل الضبع قد ارتكب عدة سرقات ، وكان الشرطة لا يزالون يبحثون عنه . لهذا اصبح بنظرهم كل شخص من تلك العائلة لصا خطرا .

ادخل الشرطي سليم الضبـع اولا الى الغرفة الداخلية ومده فلقا، فولول وبكى، واقسم الف

مرة انه لم يدس في كل حياته بيت ام وديـع . ولكن الضرب استمر الى ان تعبت يد الشرطي وعيل صبر رئيسه رئيف افندي الصهريج . عند ذاك افرج عنه وأدخل بشير ، وأعيدت العملية نفسها معه . وأعاد بشير الولولة والبكاء واقسم انه لا يعرف شيئـا عن السرقة ، وكان في كلامه يعيد ما سمع سليما يقوله ، ولو انه لم يسمعه لما عرف ما يقول ، بل لما عرف كيف يولول ويبكي .

عاد الى غرفته ذلك المساء وباشر بالدرس . ولكنه افتقد قـاموسه الفرنسي ، ففتش عنه مدة طويلة ، وقلب الغرفة رأسا على عقب دون ان يجده . وكذلك لم يجده في اليوم الثاني ولا الثالث . الى ان اضطر اخيرا ان يذهب الى مكتبة الانصاري ويسأله اذا كان عنده قاموس فرنسي مستعمـل . فأحضر له هذا قاموسه نفسه الذي كان قد افتقده منذ بضعة ايام. ولما سأله بشير من باعه هذا الكتاب، حك الرجل مؤخرة رأسه هنيهة ثم اعطاه اوصاف فائز ، ابن الجندرمة الذي كان يسكن في الغرفة الملاصقة لبشير، والذي طبعا لم يسحبه رجلا البوليس الى الدائرة . سأل بشير المكتبي :

« وكم ثمن هذا الكتاب ؟ »

« ليرتان » .

فأعاده اليه لانه لم يكن يملك من الدراهم اكثر من خمسين قرشا .

زالت آثار هذه الحوادث بعد بضعة ايام . زال التورم من اخمص قدميه ، والاحمرار الذي تركته الطبشة في سائر جسده ؛ اما الضحك الذي رن في اذنيه حينما دعـاه رئيف الصهريج بالامير بشير فذلك لم يزل الا بعد سنوات . ولعل ذلك عائد الى ان صاحبنـا ابعد ما يكون عن الامير بشير . كان صغير الجثة ، نحيف البنية ، يكاد صدره يكون اصغر من زند الشرطي الذي ضربه . ولم تكـن في عينيه حدّة الامير بشير ، بل كانت بهما بساطة ممزوجة بشيء من الكبرياء ، او كبرياء لا يعرف كيف يعبر عنهـا بسبب بساطة قلبه .

وعندما عاد الى القرية بعد بضعة ايام كان خبر ضربه قد سبقه اليها، فوجد اهله منهمكين بالدراوة ، ولاقوه بكثير من انشغال البال ، ولكنه اسرع يطمئنهم انه بخير ولم يتأذّ . ثم وقف على البيدر وادار وجهه الى صيدا ، وتمتم لنفسه :

« لا بد ان يأتي يومك يا رئيف الصهريج » .

ولكنه لم يأخذ نفسه مأخذ الجد ثانية واحدة . متى يـأتي يومه ؟ وكيف يكون باستطاعته ان ينتقم من الرجل الذي تقوى كلابة يديه على سحق رؤوس البشر ؟ عندما

يكبر ؟ وماذا يكون عندما يكبر ؟ لو انه يتمكن من انهاء دروسه في صيدا مثلا. ولكن ما الفائدة من التفكير بهذا ؟ ان الاقساط التي سيحتاجها في السنة التالية تزيد على ثلاثة اضعاف دخل والديه من حراثة الارض .

دارت هذه الافكار في رأسه كما يدور النورج الذي كان واقفا عليه حول العرمة ، وانهكته كما انهك النورج البقرتين اللتين كانتا تجرانه . وعند اشتداد الحر ساعة الظهر مر ساعي البريد على الطريق بجانب البيدر واوقف حصانه دون ان يترجل ومد يده نحو بشير وفيها مظروف ابيض وقال .

« تعال هنا يا ولد » .

فركض هذا نحوه وتناول المظروف ، ثم سحب منه ورقة كبيرة مطوية ، وبسطها امامه وقرأ :

« اللغات العربية والفرنسية والانكليزية والتاريخ : جيد جدا .
الجغرافيا والعلوم والرياضيات : ممتاز.
الرياضة : مرور .
النظافة وحسن الهندام : تقصير .
معدل العلامات : ٨٧٪ .
الدرجة في الصف : ١/٣٧ .
في السنة القادمة يكون التلميذ في الصف السادس » .

هه ! في السنة القادمة يكون التلميذ في صف الكابوسة ؟

ست سنوات اخرى مضت على هذا المنوال ، كل واحدة كانت منها سنته الاخيرة في المدرسة . كل حزيران جلب اليه الافكار نفسها واليأس نفسه وورقة العلامات نفسها . ولكن في نهاية كل صيف كانت تحدث اعجوبة تغير من الوضع وتمكنه من العودة الى المدرسة سنة اخرى . فمرة تمكن اهله من استدانة الدراهم ، ومرة تيسر له طالب ضعيف اعطاه دروسا خصوصية ، وكانت لجنة المساعدة كل سنة تحذف له رسم التعليم عدا مائة ليرة او ما يقرب منها .

ثم كانت نهاية المطاف ، وجاء ذلك الحزيران المنتظر البعيد ، وكانت حفلة تخرج طويلة عريضة ، حصل بها اكثر من ستين شابا وشابة على اوراق بيضاء ملفوفة بشرائط ملونة ، كما ان رئيس المدرسة ايضا حصل على وسام الاستحقاق اللبناني الذي انعم عليه به رئيس الوزارة مفاجأة عند نهاية الحفلة .

وفي اليوم التالي خلع بشير بدلته الجديدة ، وعاد يقف على النورج الدائر حول العرمة دون ان تؤثر على دورانه الورقة الملفوفة ولا الشريط المزركش الذي كان يربطها. وعادت

الافكار تدور في رأسه كما في كل حزيران ، وان كانت من طراز جديد هذه المرة :

« حسنا ، انهينا المدرسة ، فما الفائدة من ذلك ؟ اهي الشهادة تجلب السعادة لحاملها ؟ اهي الشهادة تطعم خبزا ؟ اهذه نتيجة كفاح السنوات الطوال ، ورقة عجفاء مربوطة بشريط مزركش ؟ وماذا تهم الورقة — ماذا تقدم او تؤخر اذا كانت لا تفتح سبيلا للارتزاق ؟ »

وقاطعه الساعي مرة اخرى ، فمر وسلمه ورقة اخيرة تشبه اخواتها السابقات في كل التفاصيل ، حتى ذيلها لم يتعلثم ولم تعبه الحيلة فأعلن ببلاغته المعهودة : في السنة القادمة يكون التلميذ في الصف الجامعي الاول .

كلا ، هذا لن يحدث . حتى العجائب قوتها محدودة . فما تكون تلك الاعجوبة التي سترسله الى الصف الجامعي الاول؟ العل سيلا من الذهب سينبع فجأة من لا شيء ويصب نفسه في جيوبه ؟

لهذا استجمع بعد ايام ما تبقى لديه من الحبر والورق، وكتب رسالة للمستر وست رئيس مدرسته طالبا منه عملا للسنة القادمة . كانت رسالة على غرار الرسائل التي علمه الرئيس كتابتها، تتبع كل القواعد والاصول من حيث الشكل والترتيب واللهجة وانتقاء الكلمات بل و الخط. وكان قد ارسل رسالةمثل هذه قبل تخرجه ببضعة اشهر الى الشركة الامريكية التي كانت قد بدأت اعمالها في صيدا في ذلك الوقت ، ولكن تلك ، كما كان ينتظر ، لم ينتج عنها شيء .

اما لماذا كتب تلك الرسالة اذاً الى الشركة اذاً كان لا ينتظر منها شيئا ، ولماذا فعل ذلك كل فرد من افراد صنفه (عدا الذين توظفوا فعلا في الشركة) وكثير من اللبنانيين من كل طبقة ، فذلك لان الجمهور تجرأ لمدة قصيرة ان يأمل ان الشركة الامريكية لن تقود اعمالها بالطريقة المعهودة حسب قوانين الواسطة والظهر والبرطيل واولاد الست واولاد الجارية، بل بطريقتها الخاصة التي سوف تجلبها معها من امريكا، بطريقة كان الجميع قد سمعوا عنها الى ان امتلأت آذانهم وقلوبهم وبطونهم، هي طريقة الكفاءة والاهلية والرغبة في العمل.

ولكن لم تكن تلك المرة الاولى التي بها خيب أمل الجمهور . فالشركة المحترمة قررت ان ترد التحية باحسن منها ، فكتبت رسالة مهذبة تشكر فيها طالب العمل على طلبه وتبلغه انها ليست بحاجة الى خدماته في الوقت الحاضر . وطبعت بضعة آلاف نسخة من هذه الرسالة على آلة الميموغراف ، وارسلتها الى الجمهور الكريم كما ترسل بطاقة من الزهور الى جنازة صديق عزيز . ثم باشرت بانتقاء عمالها وموظفيها ، من المدير الى عامل المطبخ ، من زلم مسعود بك الشرقوطة وكريم افندي النولية ، او على الاقل ممن لهم واسطة عند صقر القلعجي وغيره من الزعماء الصغار . وراحت تملأ صفحات

الجرائد والمجلات بالاعلانات المفصلة التي تشرح بها الخدمات الوجيهة التي تؤديها للبلاد !

اخذ بشير رسالته الى المستر وست بنفسه . وفي طـريقه الى المدرسة التقى بابن صفه سيبويه الجبل ماشيا في الشارع بصحبة والدته . وكانت المرارة قد بلغت مبلغا كبيرا من كلا الأم والولد ، ففي ذلك اليوم كان سيبويه قد استلم رد الشركة على رسالته . كانت امه تعلق آمـالا كبيرة على تلك الرسالة ، ولم لا ؟ الم يكن سيبويه الثاني في الصف ؟ ومن تستخدم الشركة اذا كانت لاتستخدم الثاني اذاً ؟ تلك كانت طريقة تفكيرها . ولما ترجم لهـا سيبويه رد الشركة على رسالته ، وبلغها في نفس النهار ان خمسة من زملاء الصف ، وكلهم كانوا قد حـازوا على شهـاداتهم بعد الكد ورحمة الاساتذة ، قد امسوا موظفين مكرمين في مكاتب الشركة ، عند ذاك طفح الكيل فطفشا الى الشارع بقصد الترويح عن النفس .

قال سيبويه لوالدته محاولا تهدئة روعها :

« هذا بشير الجرس . كان الاول في الصف ، ولم توظفه الشركة ».

اجابت بلهجة قوية تخاطب بشيرا :

« صحيح ؟ اذاً رح الى مكتب الشركة يا ابني . يجب ان يشغلوك غسمنعنهم » (غصبا عنهم) .

فقال بشير مبتسما :

« يا سيدتي ، انهم على الاقل اجـابوا على رسالة ابنك . اما انا فلم يتلطفوا ويجيبوا على رسالتي بعد » .

واذ تابع سيره الى المدرسة قال في نفسه : « الحمد لله ، ليس في المدرسة وساطـات ولا شفاعات » .

كان المستر بيتر ملتون وست رجلا ضخما ضخامة امريكية ، ضخما بكل ما فيه — من جثته ، الى درجته الجامعية ، الى عدد الساعات التي كان يقضيها في مكتبه ، الى مواظبته على التدين . كان ضخما حتى في عدم وفـاقه مع زوجته ، مسز ريتـا وست . اذا وقف انتصبت قامته وارتفعت ساقاه مثل عامودين جبّارين يعجز عن زحزحتهما شمشون ودليلة على السواء ، ونفر امـامه كرش محترم يضفي على شخصيته هيبة فوق هيبة . امـا رأسه فكانت تكلله صلعة رهيبـة سقطت عليه سقوط القـدر وغسلته الا من بعض شعيرات عنيدات كن يتشبثن بمؤخرة جمجمتـه بشكل نصف دائرة . وتحت تلك الجبهة الرحبة مغارتان يعلوهما حاجبان اشقران وتستقر فيهما عينان زرقاوان . وكان يغلف كل جسده

اشقرار ناعم كأنه مطلي بطبقة تشبه الاوراق الرقيقة الشفافة الملصقة على بعض كتب الجيب الامريكية .

ولما وصل بشير اليه ذلك النهار وسلمه رسالته ، كان الرئيس بحاجة الى معلم جديد للصفوف الابتدائية . فقرأ الرسالة ثم حدج بشيرا بنظره ، وقطبه بعينيه من فوق الى تحت ومن تحت الى فوق كعادته دائما ، وقال :

« ايكون باستطاعتك ضبط صف من الطلاب الابتدائيين ؟ »

اجاب بشير : « اظن انه يكون ، اذا حصلت على بعض المساعدة من الادارة » .

ولكن الرئيس كان قد سبق ونفى من رأسه فكرة استخدام بشير كمدرّس ، فصرفه قائلا :

« سأجيب على رسالتك هذه بعد ان افكر فيها وارى ما يمكنك عمله في المدرسة » .

وبعد شهر استلم منه بشير رسالة يعرض عليه فيها عملا ، ولكن ليس كمدّرس . اما نوع العمل فلم توضحه الرسالة جيدا . ذكرت فقط انه في قسم من وقته سيكون مسؤولا عن المكتبة ، ويساهم في المناظرة على الطلاب الداخليين ليلا ، ويقدم المساعدة لمكتب المدرسة بعملية طبع اوراق الامتحانات وما اشبه . كل هذه الامور كان المدرسون قد اعتادوا ان يقوموا بها بانفسهم ، بل ان المكتبة ما كانت العادة ان تولى من العناية اكثر من نصف ساعة في النهار ، يصرفها فيها احد الطلاب الكبار ظهر كل يوم بعد تناول الغداء .

كان من الواضح ان هذه الوظيفة لا لزوم لها ، وانها خلقت من اجله فقط ، وانه سوف يحشر حشرا في المدرسة . فكم كانت دهشته اذاً لما ذهب ليباشر عمله في آخر ايلول ووجد انه لن يكون وحده يقوم بهذه الوظائف المتفرّقة .

كان اول من صادفه زميل صفه ثمين كوكب ، وهو شاب مربوع القامة ، ممتلىء الجسد ، يوشك ان يكون رياضي البنية . فاندفع يسأله بشيء من الحماس ماذا يعمل في المدرسة ، ولماذا لم يوظفه ابوه — وكان رئيس البلدية — في الشركة . فنظر اليه ثمين نظرة غريبة ، ملتمسا ان يفهمه انه هو الآن قد كبر وصار رجلا ، وان هذه الحميّة قد اصبحت تحت مستواه ، وقال :

« انا افضّل التعليم » .

« التعليم ؟ وهل ستكون معلما هذه السنة اذاً ؟ »

« اجل . سكرتير المدرسة » .

سكرتير المدرسة !

كان ثمين كوكب — عفوا ، مستر كوكب — يصرف ايامه في مكتب المدرسة يضرب على الآلة الكاتبة . وكان شديد الحذر في الا يدع احدا من زملائه المدرسين يطلع على

الوثائق الخطيرة التي كان يطبعها ،مستعينا بالممحاة اكثر من استعماله لمفاتيح الآلة . ولم يكن يخامره شك انه السكرتير الخاص لرئيس المدرسة وكاتم اسراره ، وان عبء المدرسة كلها يرتكز على كتفيه وحده . وهذا كان مصدر تفكهه وكثير من الفرح لبعض المدرسين،فصارو لا يدعونه الا بيا حضرة السكرتير،وكثيرا ما تندروا بقولهم ان لا لزوم للرئيس طالما ان حضرة السكرتير موجود .

اما مستر جرس فقد اضاع نفسه في خفايا المكتبة وفي خزائنها الداخلية الى ان كاد ينسى ان يعود الى العالم الخارجي . وجد في تلك الخزائن مجلدات كبيرة مغطاة بغبار السنين المتراكم ، وكتبا كثيرة ، كرواية « ذهب مع الريح » و « رحلات غلفر » وغيرهما من الكتب الشهيرة . كل هذه كانت مطمورة في زوايا الاهمال ، فسحبها من تحت طبقات الغبار والشخلخون الكثيفة ونقلها الى الخزائن الخارجية حيث رتبها ترتيبا خاصا .

غرق في صنع ذلك كله غرقه في سنة من النوم لا تعكرها سوى الكوابيس المتكررة التي كانت تهز اعصابه هزا كلما امتلأت المكتبة بصف من صفوف المدرسة . كانت المكتبة قد اصبحت بمثابة صمام الامان للمدرسة ، فكلما وجد صف غاب عنه مدرسه لسبب من الاسباب ولم يعلم الرئيس ما يعمل به ، بعثه الى المكتبة ، كأنه قطيع من الماعز بحاجة الى زرابة مدة غياب الراعي . اما لماذا كان يتزرزع بدن المكتبي من تلك الصفوف فلذلك قصة صغيرة حدثت في الاسابيع الاولى من السنة المدرسية .

غاب مدرس احد الصفوف الابتدائية يوما . فطلب الرئيس الى بشير ان يذهب الى ذلك الصف ويعطيه الدرس . وبينما كان هذا سائرا الى مهمته عجب من ان الرئيس بدأ يثق بمقدرته على ضبط الطلاب . ثم قال في نفسه : لعله يريد ان يجربني ، ومستعد ان يعطيني المعونة اللازمة اذا اقتضى الامر .

ولم يكن هناك كثير من الشك ان الامر سوف يقتضي حتما. فقد كان من السهل جدا ان تعود به الذاكرة الى الايام التي كان بها طالبا في الصفوف الابتدائية ، وان يستعرض في ذهنه مدرسي صفه ، الناجحين منهم والفاشلين . كان يدرك ان النجاح او الفشل يحدثان في اول دقيقة يقف بها المعلم امام الصف ، فان تمكن من ارهابهم نجح ، والا فشل. اما نوع الدماغ الذي في رأس المعلم ، ومقدار رغبته في تفهم مشاكل الطلاب ومساعدتهم ، فتلك امور عارضة لا دخل لها في الموضوع .

هذا المقدار من حقائق الحياة الواقعية كان يعرفه بشير وكان مستعدا ان يستفيد من معرفته . فبعد الدقيقة الاولى من دخوله الى ذلك الصف تبين له ان سمير الادعج هو زعيم المشاكل في الصف دون منازع، فأنذره مرتين بطريقة لطيفة ولكن دون جدوى، وانذره ثالثة بطريقة غير لطيفة ، فأخذ الولد يهزأ منه . عند ذاك لم يبق امام المعلم سوى المقدّر

البغيض ، فانقضّ على الشيطان الصغير ولطمه لطمة شديدة على خده الايمن . وحالا طفح من فم الصغير طوفان صاخب من الشتائم ، وحاول ان يردّ له اللطمة . فالتقطه بشير بيده الواحدة وانهال عليه ضربا باليد الاخرى الى ان ارغمه على السكوت . وعند ذاك ، متتبّعا خطى الناجحين من مدرسيه ، قذفه خارجا وقال :

« رح الآن واشكني الى الرئيس » .

مضت بقية الساعة ونظام الصف اكثر دقّة من نظام الساعة . ان للاولاد منطقا لا يقبل الجدل ، فكل مدرس لا يبرهن لهم عن شراسته وشدة بأسه مرة واحدة على الاقل هو بالنسبة لهم مدرس ضعيف لا يستحق احترامهم. وهل يكون الصغار افضل من الكبار من هذه الناحية ؟

ولكن عندما عاد بشير الى المكتب سلمه الرئيس، دون ان ينطق بكلمة، ورقة صغيرة طبعت عليها عبارتان قصيرتان : « لا تضرب الاولاد . ان الضرب ممنوع في المدرسة » .

ثم دخل الغرفة نائب الرئيس وقال بصوت عالٍ بحيث تمكن من سماعه الصبي المضروب الذي كان جالسا يجفّف دموعه في الغرفة المحاذية :

« ماذا سنقول لاهله الآن ؟ ان الدم يسيل من فمه » .

فأجاب بشير بنبرة صبغها بغضب خفيف :

« لو انك سمعت ما كان يسيل من فمه غير الدم عندما كان في الصف ... »

حطمت كلمة نائب الرئيس وعبارتا الرئيس القصيرتان بسرعة مدهشة كل ما بناه بشير لنفسه تلك الساعة مما يعرف في المدرسة باسم « الشخصية » ، خصوصا حينما قرّر ان يأخذ بأمر الرئيس ويتوقف عن الضرب . فمعرفة بشير بحقائق الحياة لم تكن قد بلغت بعد حدّا يجعله يفهم ان حياته في المدرسة بدون « الشخصية » تكون كحياة سمكة خارج الماء، وان المدرس الذي يستطيع ان يبني « شخصيته » دون ضرب او تهديد وارهاب ليس فرخا مبتدأ مثله ، بل ينبغي ان يكون مربّيا عتيقا متمرّنا عارفا بنفسية الصغار كل المعرفة ، وانه لا يوجد واحد في البلاد كلها يستطيع ان يفعل ذلك ، ولو كان المربي الكبير المستر وست نفسه .

وسرعان ما غاب معلم آخر لذلك الصف نفسه وارسل بشير ليأخذ مكانه . وكانت تلك فرصة ممتازة لسمير الادعج ان ينتقم منه ، فعندما لم يضربه بالرغم من سوء تصرفه تيقن والباقون ان المستر جرس ليس معلما بالمدرسة بالمعنى الصحيح ولا يسمح له بالضرب، واطلقوا لنفوسهم الحبل على غاربه ، الى ان تحوّل الصف بسرعة الى زريبة ملأى بالكلاب المجنونة .

هكذا تطور موقف مستر جرس تجاه طلاب المدرسة كما يتطور مرض فتّاك، واشتدت

وطأة مشكلته كل يوم الى ان غدت حياته جحيما لا يطاق . فكما ان الجسد الضعيف تتكاثر عليه الامراض حالما يتمكن منه داء واحد في البداية ، هكذا تتعدد صعوبات المعلم الذي لا « شخصية » له ، الى ان يمسي لا يحترمه احد .

لم يكن في المدرسة كلها معلم واحد يتورع عن الضرب كلما اقتضى الامر ، فلماذا يصبح الضرب ممنوعا في المدرسة بحالته هو فقط؟ خطرت له كل الاجابات على هذا السؤال العويص ، الا الجواب الصحيح . لم يخطر له ان في المدرسة طلابا وطلابا ، وان قانون منع الضرب يسري على البعض ولا يتناول الآخرين .

ماذا ؟ اتكون المدرسة سائرة على قانون ابناء الست وابناء الجارية مثل الشركة الامريكية ؟

لا ، هذا لا يجوز .

ذهب مرة الى مكتب الرئيس ، وحاول ان يشرح له ما يعتمل في نفسه ويطلب منه المساعدة . ولكن المستر وست اصرّ على ان الضرب ممنوع في المدرسة ، وانه لا يفيد شيئا سوى انه يشفي غليل الضارب موقتا. ثم شرح لبشير ان الصغار يسيئون التصرّف عادة لسبب واحد هو شعورهم بعدم الامان ، وبعد ذلك قال :

« ماذا تعمل طوال الوقت في المكتبة ؟ لماذا لا تتحدث الى سمير الادعج وتحاول ان تفهم ما هي مشكلته ؟ »

فحاول بشير ان يفهمه وجهة نظره ، ولكنه ما ان شرع يتكلم حتى ادار الرئيس وجهه الى الجهة الاخرى ، وجلس الى الآلة الكاتبة ، وانصرف الى اعماله .

خرج من عنده والغيظ يتآكله ، ومشكلته قد زادت تعقيدا فوق تعقيد . ولما مرّ في ساحة المدرسة اذا باهل سمير الادعج جاؤوا يزورونه بسيارة كاديلاك آخر موديل .

ماذا يعمل في المكتبة طوال النهار ؟ اذاً لا قيمة لما يعمله في المكتبة . اجل ، مستر وست معه حق ، فعمله في المكتبة ميكانيكي وسهل جدا . وكلما سئم منه كان لا يسعه الا ان ينصاع لتجربة خطرة هي صرف ساعات طويلة كل نهار بمطالعة الكتب .

عندما كان بشير طالبا كانت عادته – العادة التي فرضتها عليه الضرورة فرضا – ان يعتبر نفسه مقصرا في اي درس يحوز به على علامة تقل عن الثمانين بالمائة . اما الآن فلم يخطر له ببال ان ما يعمله في المكتبة قد يكون بذي فائدة كبيرة لسبب بسيط ، هو ان المكتبة لم تصبح بين ليلة وضحاها نقطة ارتكاز المدرسة والمع مكان فيها . ومن الواضح ان الرئيس لا يحسب المكتبة قسما هاما من المدرسة ، فهي بنظره لا تستحق ان يوليها احد المستخدمين كامل وقته .

ولم يخطر لبشير ان قصص « رحلات غلفر » التي كان يقرأها بشوق ثم يقصها على

الطلاب الصغار في امسيات نهاية الاسبوع حينما يكون الدور دوره بالمناظرة عليهم ، تلك القصص التي كانت تسيطر على مخيلات الصغار مثل السحر ، فينصتون اليها كأن على رؤوسهم الطير ، ويناشدونه ان يستمر بقصّها حتى بعد انتهاء الوقت ، وعندما يخرجون الى اللعب يروحون يتصورون انهم ابطالها ، — لم يخطر له ان تلك القصص قد تكون ذات قيمة ثقافية للطلاب ، او انها اكثر من طريقة لاضاعة الوقت يتبعها معهم لانه لا يدري ما يفعل بهم في نهاية الاسبوع عندما يرفضون قضاء الامسيات بالدرس .

هكذا تخلخل مركزه في المدرسة تدريجيا ، وانعدمت ثقته بنفسه ، واصبح يشعر ان كل ما يعمله فيها سلسلة من الفشل المتواصل ، وصار يحسد مستر كوكب لمركزه الثابت ووثائقه الخطيرة التي كان يطبعها ولايمانه الراسخ انه سكرتير المدرسة وكاتم اسرارها رئيسها .

الضرب ممنوع في المدرسة . اما الارهاب والتهديد والسخرية القاسية والكلام القارس، فهذا ليس ممنوعا — لان الرئيس نفسه يستخدمها ، عن قصد او غير قصد . فالطلاب لا يحترمونه لسواد عينيه، ولا لزرقتها ، بل لانهم يخافونه. عندما يلمس المعلم جسم الطالب يلحق به ضررا فاحشا ، لكن عندما يجلده نفسيا وروحيا فذلك لا بأس به . ان جسد الطالب ، حسب فلسفة مستر وست ، هيكل مقدس لا يجوز لمسه، اما مشاعره وافكاره ودخائل نفسه فتلك مزابل يجوز البصق عليها والتنكيل بها— وهكذا مشاعري وافكاري ودخائل نفسي بالنسبة لهذا الرجل . انها مزابل لا اكثر ، يجوز ان يتمرّغ عليها كل الديوك من طلاب مدرسته .

لا ، هذا لن يحدث بعد اليوم . ليت المربي الفاضل يمنحني نصف ساعة من وقته ، اذاً لحدثته كيف جلدني ذلك الشرطي منذ سنوات الى ان تورم جسدي ، وكيف ان ذلك زالت آثاره حالا ، اما التهكم الذي لذعني به بدعوته اياي الامير بشير فلم يزل طعمه تحت اسناني الى الآن. ولكن المربي الفاضل مشغول. ولكني سافهمه ان في هذه البلاد الغريبة ، والتي لم تزل غريبة عنه بالرغم من قضائه عشرين سنة فيها دون ان يجد الوقت كي يرفع رأسه عن آلته الكاتبة وينظر اليها، حيوانات عجيبة لا تهتم بجسدها اذا اهينت نفوسها . سأعيد تثبيت « شخصيتي » بين الطلاب ، وسأرغمهم على احترامي حتى وان كلفتني العملية رقبتي .

زاره في المكتبة صف من الطلاب كانت اعمارهم لا تتجاوز العاشرة . فوزع عليهم كتب « الف ليلة وليلة » المطبوعة خصيصا من اجل الصغار ، فجلسوا وانهمكوا بقراءتها بلذّة

كبيرة . وبعد مدة نظر الى زاوية من الغرفة، واذا بصبي قد وضع رأسه على يديه واستسلم للنوم، فاقترب منه ببطء، وشدّه بشعره شدّة خفيفة جعلته يجفل وينتصب بجثته الصغيرة على المقعد فجأة ، ثم قال له :

« هل هذه غرفة نوم ؟ »

اجاب الصبي فورا وعيناه تتألقان :

« كنت سهرانا طيلة الحصة الفائتة ، استاذ » .

وانفجر الضحك حالا من الف حنجرة . ولكـن كفّ المعلم سارعت وهوت على خدّ الصبي بلطمة لم تكن قوية ومع هذا فقد قفز منها صوت حـادّ ملأ الغرفة واخرس كل فم فيها . اما الصبي المضروب فقد بقي جالسا مكانه لا ينطق بكلمة ولا يبكي، وقد اندفع الدم الى رأسه بغزارة جنونية وصبغه باحمرار شديد . ولما سأله بشير لماذا لا يقرأ ، اجاب انه قد انهى الكتاب .

انصرف اولئك الطلاب من المكتبة ، وشعر بشير بغصة من الالم . لعله قسا على هذا الصغير ؟ ولكن عندمـا تذكر قوله انه كان سهرانا في الحصة الفائتة عـاد وابتسم وقال لنفسه : « حسنا ، آمل الا يصل صدى ذلك الكفّ الى اذني الرئيس ! »

ولكنه وصل . فحينما صادفه الرئيس في اليوم التالي دعاه اليه وتكلم باذنه هامسا كأنه يطلعه على سرّ :

« يقول والد احد الطلاب انك ضربت ابنه امس بشدّة حتى ان الصبي انتابه وجـع رأس منعه من النوم . فاكتب له رسالة اذا شئت او اذهب اليه وابحث معه امر ابنه » .

« بطيبة خاطر » .

وانصرف بشير وهو يقول لنفسه: « ماذا ، الم يعد الضرب ممنوعا في المدرسة؟عجبا، ماذا فعلت كي لا استحق الطرد بالرغم من تجاهلي الواضح لمنعه اياي من الضرب ؟ »

واذ صادف الولد الذي ضربه في الساحة دعـاه اليه ، ودخل الاثنان غرفة المكتبة . ثم سأله :

« ما اسمك ؟»

« خليل الصهريج ، استاذ » .

« واسم ابيك ؟ »

« رئيف ، استاذ » .

« رئيف ؟ وماذا يشتغل ؟ »

« بوليس ، استاذ » .

ونظر مليّا الى الصغير ، فاذا بعينيه تلتمعان بنور غريب ، ويديه النحيفتين تستقرّان

على ركبتيه العاريتين، ورجليه تتأرجحان بسرعة وحمية اذ كان جالسا على كرسي عالٍ . واستمر يسأله :

« خليل ، ما عنوان بيتكم ؟ »

فتلعثم خليل واطرق بعينيه ، واستسلم للصمت .

« ما بالك ؟ الا تعرف اين تسكنون ؟ اين بيتكم ؟ »

فاجاب الصبي مرغما:

« في البلد ، استاذ ».

« اعرف . ولكن اين في البلد ؟ »

« قرب البحر ، استاذ » .

« قرب البحر ؟ من اية جهة ؟ في اي شارع ؟ »

فقال الصغير بصوت لايكاد يسمع وقد طلاه الاحمرار، تماما كما فعل لما تلقّى الضربة:

« في خان الرز ، استاذ » .

« لا تستحِ يا خليل . انا لما كنت في عمرك كنت اسكن في خان الرز » .

فحدجه خليل بنظرة مختصرة ، كأنه لم يتمكن من فهم ما يقول ، او كأن كلامه لا يركب على قوس قزح . واردف الاستاذ :

« خليل ، هل تعرف صابات امّ وديع المعّاز ؟ الم تزل تسكن في خان الرز ؟ »

« نعم ، استاذ » .

« حسنا . سأذهب معكم الى بيتكم هذا المساء وارى والدك ، وكذلك سنذهب انت وانا الى امّ وديع ، وسترى كيف ستقول لك انني كنت اسكن في خان الرز لما كنت في سنّك . عندما تنتهي من المدرسة اليوم تعال هنا فنذهب سوية الى بيتكم » .

ولكن خليلا لم يأتِ ذلك المساء ، ولا في المساء التالي ، ولا في مساء آخر .

وكاد بشير ينسى عزمه على زيارة اهل خليل. كان قد عزم على تلك الزيارة كيما يتأكد اولا ان والد خليل هو نفسه رئيف الصهريج الذي يعرفه. وبعد ذلك كان ينوي ان يحدجه بنظرة صامتة خرساء ، ثم يستمر الى غرفة ام وديع ويسألها عن ابنها زميله القديم .

وفي اليوم التالي لمحادثته مع خليل، الساعة الثانية بعد الظهر، قدم الى المدرسة صف آخر تتراوح اعمار افراده بين العاشرة والرابعة عشرة . فلاقاهم بنظرة صارمة محاولا ان يفهمهم ان اللعبة بينه وبينهم ستنعكس قوانينها ذلك النهار . كان ذلك الصف من اصعب صفوف المدرسة مراسا ، اذ صدف ان اجتمعت فيه عصبة من الزعران يزيد عددها على العشرة، وكلهم ذوو جثث ضخمة واولاد لبعض زعماء البلدان العربية واثريائها. وكانت تلك العصبة تنظّم نشاطها بدقة وترسم خطط الهجوم مسبقا ، حتى لم يبق بين معلمي المدرسة

واحد لم يكن له مع ذلك الصف قصص طويلة معقدة .

فلم يكن من الغريب اذاً ان تكون نظرة بشير الصارمة منبعا لتفكهة تلك الزمرة من الأولاد . فعندما استقروا في غرفة المكتبة ، وبعد ان ازاحوا الكراسي من امكنتها وجلسوا حول الطاولات كأنهم في مقهى ، اعلن احدهم بصوت ضاحك :

« يا شباب ، الآن سوف ندقّ الجرس » .

وتلت ذلك عاصفة من الضحك لم يؤثر عليها صياح مستر جرس بعصبية كبيرة : « اخرس ! » بل على العكس ، زادت تلك الصيحة من مرح الاولاد وتهكمهم . خصوصا عندما تلفّت ذلك الولد حواليه وقال :

« ارأيتم ؟ قلت لكم اننا سوف ندق الجرس ».

عند ذاك تقدم بشير نحوه ببطء ، فوقف هذا منتصبا مستعدا لمعركة طاحنة . ولما رأى المعلم ان طول الصبي يكاد يزيد على طوله هو ، وكذلك ثقل جثته يزيد على ثقله ، نظر اليه نظرة استغراب من وجه يعلوه شبح ابتسامة ساخرة . واذ وصل اليه مدّ له يده اليمنى كأنه يبغي مصافحته . ولكن الولد لم يكن مستعدا للمصافحة بل للقتال ، فاسرع يلطم يد الاستاذ بعصبية شديدة . وبأسرع من لمح البصر انطبقت اصابع تلك اليد على بعضها وهوت قبضة المعلم على فكّ الطالب الايسر بلطمة طرحته ارضا. ثم اسرع ومسكه بشعره ، واوقفه على رجليه وقذفه خارج الغرفة واقفل الباب .

كانت طيلة الوقت تملأ الغرفة صيحات متتالية تشبه نقيق الضفادع في ليلة مقمرة. وكما ان الضفادع تصمت فجأة اذا شعرت بشيء يقترب منها ، هكذا صمت الاولاد حالما اقفل بشير الباب ونظر اليهم وقال بصوت منخفض هادىء ، كأنه يخبرهم خبرا عارضا :

« اوّل من يتنفس منكم سأمزعه قطعتين » .

ولم يتنفس احد .

فتح بشير كتابا وجلس وظهره الى الطلاب. وبقي طيلة الساعة يقرأ دون ان يسمع من الصف اقل همسة . ولكنه ما فهم كلمة واحدة مما قرأ . ثم راح يتمنى ان تكون تلك المرة الاخيرة التي يضطر بها الى ضرب طالب،ويتصور نفسه صديقا لهذا الصف خصوصا، الآن بعد ان حاز على احترامهم على الاقل بواسطة القوة التي لم يدخل في رؤوسهم يوما انها موجودة في ساعده . ان صداقة تقوم على الاحترام المتبادل قد ينتج عنها شيء ، فهو قد يتمكن من ان يجد سبيله الى قلوب اولئك الصغار،وهكذا قد يكون له تأثير اساسي على حيواتهم ، وفضل في حل مشكلة مستعصية من مشاكل المدرسة .

ولم لا ؟ انه بدأ يشعر بنوع من الصداقة لخليل الصهريج بعد تلك اللطمة التي اولاه اياها ، والمحادثات القصيرة التي جرت بينهما، كأن هناك شيئا خفيا يجذبه الى ذلك الصغير ،

لم يـدر أهو البريق الغريب الذي في عينيه ، او حركة جسده الصغير التي لا تتوقف حتى عندما يجلس ، او نكتته الرائعة التي من اجلها استحق تلك الصفعة . سوف يسأله من علمه ذلك الجواب، وكذلك سوف يحاول ان يغريه بقراءة احدى قصص « الف ليلة وليلة » الى النهاية ، فلا يعقل ان يكون انهى قراءة كتابه كله كما زعم في تلك المدة القصيرة .

اجل ، قد تستيقظ في خليل رغبة في القراءة ، وقد تنمو تلك الرغبة الى ان تجعله يتوقّف عن النوم في المكتبة ويبقى سهرانا في كل صفوفه .

وبعد العشاء قرر ان يذهب لزيارة رئيف الصهريج .

وصل الى بوابة خان الرز ، فانقض على ذاكرته جمهور من الصور وبرقت امامه المرة الاولى التي بها دخل تلك البوابة ، فكاد يملأ اسماعه صوت الاولاد الذين كانوا يلعبون في الساحة ، وعنين الحجر قرب اذنه، والاصوات التي هتفت: « ثمير ! » وتسلق الدرج الذي لاينتهي الا في السماء ، وسار على الشرفة الملساء الطويلة التي عرفهـا سنوات طويـلة ، ولمح خليل يدخل باب احدى الغرف ، وسرعان ما تذكر انها الغرفة نفسها التي كان يسكنهـا هو مع ابناء الخردل.

رئيف نفسه لم يكن في البيت،بل كانت هناك زوجته واولادها السبعة الذين تتراوح اعمـارهم بين بضعة اشهر هي سن الجنين الذي لم يزل في بطنهـا ، وتسع سنوات هي سن خليل . وارتبكت المرأة ارتباكا شديدا لما رأت زائرها ، واندفعت تعتذر له لان الغرفة غير مرتبة ، ولكنه اسرع وهدّأ من روعها مؤكدا انه انمـا يود ان يري ابا خليل دقيقة واحدة. فقالت ان ابا خليل لم يعد بعد من عمله، ولكنها تنتظر قدومه بعد بضع دقائق، فطلب اليها ان تسمح لخليل ان يرافقه الى غرفة ام وديـع حيث كان ينوي الانتظـار الى ان يأتي زوجها . وما ان رأته ام وديع حتى هتفت :

« بشير حنا ؟ ما الذي جاء بك الى هذه البلاد اليوم ؟ »

« خليل جاء بي كما ترين . انه لا يصدق اني كنت ساكنا هنا في الماضي . قولي له ، الم اكن اسكن هنا ؟ »

« اجل اجل ، في نفس الغرفة التي يسكن بها اهله الآن » .

عند ذاك اسرع خليل يقول لها :

« ولماذا قلت لي انك لا تعرفين مستر جرس عندما سألتك ؟ »

« مستر جرس ؟ من هو مستر جرس ؟ كلا ، لا اعرفه » .

فضحك بشير وقال :

« مستر جرس يتكلم اليك الآن . هكذا يدعونني في المدرسة » .

ثم اردف مخاطبا خليلا :

« لماذا لم تمر عليّ في المساء كما اوصيتك ؟ ظننتني اكذب عليك ، اليس كذلك ؟ »

فاجاب الصبي مطرقا :

« نعم ، استاذ » .

وبالرغم من اعتراض بشير انه لايستطيع البقاء اكثر من بضع دقائق عند امّ وديع ، انصرفت هذه الى الغرفة التالية التي كانت قد استأجرتها حديثا وتستعملها كمطبخ ، وانهمكت باعداد القهوة . واذ بقي المعلم والطالب منفردين في الغرفة بدأ الاول بالحديث ، فقال برقّة :

« خليل ، قل لي : من علمك ان تجيبني ذلك الجواب في المكتبة عندما ايقظتك ؟ »

« لا احد ، استاذ » .

« لا احد ؟ انت فكرت فيه بنفسك ؟ »

« نعم » .

« لا تكذب » .

فصمت الولد غير عالم ما يقول . واستمرّ بشير بعد ان جرّد صوته من الصرامة واستعاد لهجته الرقيقة :

« هل كنت فكرت بذلك الجواب من قبل ، او انه خطر لك في تلك اللحظة ؟ »

« خطر لي في تلك اللحظة » .

« ولماذا ؟ هل انت متعوّد ان تنام في كل صف ؟ »

« في اغلب الصفوف » .

« في اغلب الصفوف ؟ ولماذا لا تنتبه للمعلم ؟ ما درجتك في صفّك عادة ؟ »

« الخامس او السادس ، استاذ » .

« لا بأس . ولماذا تنام في الصف ؟ »

« انام في آخر الساعة فقط . لان المعلم يردّد الدرس الف مرة . لا يقول شيئا جديدا الا في البداية » .

« وانت تحفظ الدرس من اول مرة وتصرف بقية الساعة نائما ؟»

« نعم ، استاذ » .

« ولماذا لا تكون الاول في الصف اذاً ؟ »

« لا ادري استاذ . لو راجعت قبل الامتحانات لكنت الاول»

« ولماذا لا تراجع ؟ »

« لا اقدر ان ادرس في البيت » .

لا يقدر ان يدرس في البيت . ومن يقدر ان يدرس في ذلك البيت ؟ هو ، بشير ؟ كلا، انه لايقدر . درس في تلك الغرفة نفسها ساعات طويلة ، ولكن حالتها كانت تختلف عما هي عليه الآن . من يستطيع ان يكتب كلمة او يقرأ حرفا في ذلك البيت بين انين الاطفال المتواصل ؟ المستر وست ؟ فكرة مضحكة ! ترى كم يوما يستطيع المستر وست ان يتحمل الحياة التي يعيشها خليل ؟ وكم ثانية تستطيع نظرته التربوية المحبوبة عن شعور الاولاد بالامان ان تعيش في بيت مثل بيت اهل خليل ؟

قال المعلم مغيّرا الموضوع :

« خليل ، هل تحب القراءة ، قراءة القصص ؟»

« نعم نعم . احب القصص كثيرا » .

« اذاً انت انتهيت من قراءة القصة التي اعطيتك اياها في المكتبة ؟ »

« طبعا ، استاذ » .

« وتستطيع ان تقصها عليّ وعلى ام وديع الآن ؟ »

كانت ام وديع قد دخلت في تلك الدقيقة تحمل القهوة. ثم جلس الثلاثة، وراح خليل يقص بأدق التفاصيل قصة الرحلة الاولى للسندباد البحري . واصغى الاثنان اليه بمنتهى الشوق مدة تزيد على ربع ساعة والدهشة قد تمكنت من بشير الى ابعد حدّ ، لانه كان يشك كثيرا فيما اذا كان باستطاعته هو ان يتذكر كل تلك التفاصيل حتى بعد قراءة القصة مباشرة .

ولما انتهى القصاص الصغير ، وختم قصته بابتسامة، كأنه انتهى من التهام قطعة حلوى، وصل والده الى البيت. فقام الاثنان يستأذنان ام وديع، ثم ذهبا الى بيت رئيف الصهريج، وقد نسي بشير كليا ما كان ينوي ان يفعله عندما تقع عيناه على رجل البوليس .

واذ كان واقفا في الباب القى عليه الشرطي نظرة فاحصة استغرقت بضع ثوانٍ ، لم يلبث بعدها ان ابتسم مادّا يده وهو يقول :

« مستر جرس ؟ اهلا وسهلا ، تفضل » .

وبعد تحية مختصرة قال بشير :

« اتذكر يا رئيف افندي لما كنت ساكنا عندكم مع اخويك جورج وفؤاد ؟ »

كان وجه رئيف قد فرغ فجأةمن ابتسامته بعد التحية فورا، وراح يتأمل بشيرا بنظرة غريبة عندما كان هذا يتكلم الى الام . ولكن ما ان نظر اليه بشير مرة اخرى موجها اليه السؤال حتى عاد وابتسم حالا ابتسامة لاتخلو من الارتباك ، واجاب بكلمات خرجت من فيه يطارد بعضها بعضا:

« طبعا طبعا . جورج وفؤاد . نعم اذكر ، وكيف لا اذكر ؟ »

هذا كان شأنه طيلة الزيارة . كلما حول بشير نظره عنه شرع يتفحصه بنظرة غريبة مليئة بالدهشة كأنه يرى شيئا لا تصدقه عيناه، وكلما ادار بوجهه نحوه ابتسم حالا وجعل يتكلم بسرعة وبشيء من الارتباك كأنه لا يعي ما يقول . قال بشير مخاطبا الوالدين :

« اظن ان ولدكما شديد الذكاء ويرجى له مستقبل عظيم . وحيث انه لا يستطيع ان يدرس هنا في البيت ، فأرجوكما ان تسمحا له ان يصرف امسياته معي في المكتبة حيث يتمكن من الدرس والمطالعة بهدوء ».

وافق الوالدان حالا على هذا الاقتراح شاكرين . وما هم بشير بالانصراف حتى استوقفته الوالدة قائلة :

« اسمع يا استاذ . كيف يعود خليل بمفرده في الليل بعد ان ينتهي من المكتبة ؟ »

فاسرع الوالد يقول ان خليلا قبضاي لا يخاف الظلام، واعرب بشير عن استعداده ان يأتي ويوصله الى البيت كل مساء . ولكن الوالد رفض ذلك قائلا :

« لا لا، انا اذهب وآتي به . فلا تزعج نفسك بذلك يا استاذ » .

« حسنا . نبدأ غدا اذاً . غدا تعود يا خليل الى المكتبة بعد تناول العشاء مباشرة . وبعد ان تنتهي من دروسك يمكنك ان تقرأ من القصص في المكتبة حتى تشبع » .

فانبسطت اسارير الصغير هنيهة ، ولكن وجهه لم يلبث ان اتخذ تعبيرا جدّيا، واندفع يسأل الاستاذ من يكون ذلك الرجل الطويل السمين الذي غالبا ما يراه في المدرسة . واذ سأله بشير اي رجل يعني ، اجاب خليل بلهجته الصيداوية :

« هيضا الليضا اللي وجّو يا فوء » (هذا الذي وجهه الى فوق) .

« هذا رئيس المدرسة يا خليل » .

عاد الى المدرسة والآمال الكبار ساطعة امامه مثل شمس الصباح . وبنى وهو في شوارع المدينة قصورا في الهواء اين منها المآذن العالية التي كانت تشتعل باصوات المؤذنين تلك الساعة . سار ورجلاه تكادان لا تلامسان الارض وهو لا يرى شيئا مما حوله .

كان مشغولا بمشاريع جبّارة عديدة ، مشاريع مَن اسكرته اول قطرة من النجاح فراح يعبّ منه دونما وعي ، مشاريع مَن تغلّب على مشكلة مستعصية كانت تعذبه نهارا وتطرد النوم من عينيه ليلا ، فوقف مثل عملاق يتحدّى العالم وكل مشاكله .

اليس هذا ما يريده المستر وست ؟ وهل يريد اكثر من ذلك ؟

خلال تلك الرحلة القصيرة من خان الرز الى المدرسة ، الرحلة التي كان قد قام بها الف

مرة من قبل ، حوّل خليلا الصغير الى المع طالب في المدرسة ، وابناء الزعماء الذين يتعلمون في المدرسة الى زعماء من طراز جديد ، زعماء عارفين بما تحويه المكتبات من عصارة ادمغة العظماء وقلوبهم ، زعماء لا يصرفون كل اوقاتهم وجهودهم يصارعون بعضهم بعضا كالثيران .

ولكن كيف يحقّق هذا الحلم الرائع ؟ كيف يبدأ ؟

اجل ، انه يعرف . سوف يؤلف ناديا في المدرسة يضمّ الطلاب امثال خليل الصهريج من صغار وكبار ممن لهم رغبة في القراءة ، وسوف يقضي اوقات فراغه بصحبة اولئك الطلاب ينقّبون ويتحرّون عالم الكتب الساحر ، ثم يؤلفون حلقات صغيرة حسب السن ، ويتحادثون فيما بينهم احاديث طويلة شيقة .

من يوجد غير خليل يمكنه الانضمام الى هذا النادي؟ مَن من الطلاب الكبار ؟

دخل غرفته وهو لم يزل في غيبوبة عميقة ، يستعرض في ذهنه فلانا وفلانا من الطلاب الذين كان قد لاحظ عندهم رغبة في القراءة . واذ هو هائم في عالم احلامه وقع بصره على الطاولة ، فرأى مظروفا ملصقا وقد طبع عليه اسمه بالآلة الكاتبة . ففضّه وقرأ :

« عزيزي مستر بشير حنا جرس :

« بلغني انك عدت الى ضرب الاولاد . وقد حذّرتك قبلا ان الضرب ممنوع في المدرسة ، عندما ضربت سمير الادعج كما تذكر . ان الضرب امر خطير ، وغير مستحب ، وتربية رديئة . ولهذا فانا ابلغك الآن انك ينبغي ان تترك المدرسة خلال اسبوعين وتفتش لنفسك عن عمل آخر يتلاءم مع رغباتك وافكارك ومؤهلاتك .

« انا لا اسرّ ابدا باتخاذ هذا الاجراء ، ولكن الضرورة ترغمني .

ب.م. وست » .

هذه « المقابلة المركّبة » ، كما يسميها صاحبها وليم فايفيلد، اجراها مع بيكاسو ومع نفر من الفنانين المقربين اليه ، تنشرها «حوار» في سلسلة المقابلات مع ادباء وفنانين ومفكرين عالميين ، بالاتفاق مع مصدرها الاصلي «ذي باريس ريفيو» (حيث ظهرت في نص مطول). وكان قد سبق لنا ان نشرنا مقابلات مع اليوت و ضريل وهنري ميلر و مورافيا و كوكتو ، ومع نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وجورج شحادة ويونسكو ، وسواهم.

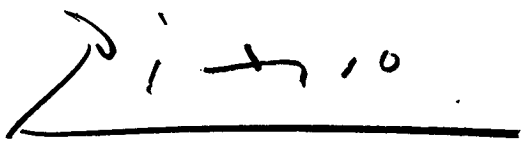

ارتدى وليم فايفيلد قبعة الصيد، وانطلق في اثر الطائر الاحمر ذي الجناحين الاسودين بابلو بيكاسو . وعـاد ومعه بضعة مفاتيـح واشارات يمكن بها لكل انسان ان يركّب « عصفوره » الخاص .

جورج راميه : جاء هنا في ١٩٤٦ كزائر لا اكثر . طلب ان يصنع قطعـا فخارية قليلة وان يتركها معي لاطبخها .

— اكان الفخار هنا ما يزال حسب التراث القديم ، تراث فناجين الشرب ؟

راميه : كانت الحرب قد دمرت الاشياء . كنـا نقوم بتجارب ومحاولات . اظن ان بيكاسو احس بهذا ورأى امكانات التجديد اكثر مما فعلنا نحن الباقين .

— ماذا حدث ؟

راميه : غاب . صمت مدة سنة . في ١٩٤٧ عاد ، وعندما نظر الى القطع التي تركها هنا بدا كأنه «يراها»— كأنما كانت فيها الاكتشافات التي وصلت اليها يداه بالصدفة تقريبا — بالصدفة الموجهة وان تكن اللاواعية — وجلس في الحال وابتدأ .

– تعني حرفيا انه صنع القطع اذ ذاك وهنالك ؟

راميه : هناك – خلفنا. قرب الدولاب. اصبح فخاريا في الحال ، صنع الآف القطع الموجودة الآن في متاحف العالم باسره ، وما زال يصنعها لكنه يرسل النماذج من موجان الآن . كان يعمل بجد اكثر من اي عامل – كان صانعا حقا . كان يعطيك الانطباع ان يديه قد طبعتـا مـا يجب عمله – في قطع ١٩٤٦ تلك – وكان عليه ان ينتظر مـدة سنة حتى يرى .

– هل تقول ان كل شيء يبتدىء باليدين ؟

راميه : بالضبط . ما عليك الا ان تراقبه .

– مثل نيجنسكي وهو يرقص ؟ اقصد ، شيء لا يمكن ان يخطىء ؟

راميه : انه تجريبي . لهذا ليست له مدرسة – مع ان ثمة بعض الذين يقلدونه في هذه البلدة – انه ينتقل من شيء الى آخر،يبدع ويخلق بينما يجادل اصحاب النظريات عن جنس الملائكة . انه تجنب مستمر للنظريات ، سيرا نحو نظـام يجيء فيما بعد ولم يكن منتظرا مطلقـا .

– اريد ان اعرف هذا من فم الثور مباشرة (ولا اقصد ان اكون عديم الاحترام) . انا اعـرفه بعض الشيء – ذهبت الى حفلات مصـارعة ثيران معه – ولكن – بفكري شيء آخر ايضا .

راميه : ثور . فيه شيء من ذلك . ليس بمعنى الاندفاع الغاضب – تلك اسطورته . وانما شيء فيه ثابت وارضي ولصيق بالطبيعة . اعرف ماذا تقصد حين تقول « ولكن » – لا ، انه لا يقابل احدا الآن . يستحيل ان تراه .

(جورج راميه ، معلم فخاري ، في فالوري ، رجل ضخم يشبه فرناند ليجير، محاط بنسخ من اعمال بيكاسو ، ما بين ٢٥ و ٣٠٠ ، سعرها ما بين ٢٠ و ٨٠ دولارا والاصول من ٢٠٠٠ دولار فما فوق، بومات ، حيوانات خرافية سليطة، مصارعات ثيران ، رقص، تشكيلة بيكاسو بكاملها) .

(كان في فالوري عشرون فخـاريا عندمـا جاء بيكاسو في ١٩٤٦ – ١٩٤٧ . اليوم ١٥٠ . بعضهم مبدعون اصيلون ، بعيدون كل البعد عن بيكاسو . احدهم قسطندا) .

قسطندا : اجل ، صحيح اننا الآن ، جميعنـا ، اثرياء تقريبـا . لكن انظر الى تلك الاشياء على الجانب الآخر من الشارع .

– لا يمكن ان تجيئك اموال السائحين بدون ان تجيئك روائحهم الكريهة . آخر مرة

كنت هنا كان يوم ميلاد بيكاسو الثمانين . لم يكن بوسعك اجتياز الشوارع .

قسطندا : كان علينا ان ندخل جميع القطع للداخل وقاية لها من التحطم او السرقة .

– ما اثار اهتمامي هو انه لم يكد يوجد احد من بين الآلاف المؤلفة يحب اعمال بيكاسو. وصل الى سمعي انينهم عنها في الكنيسة عند جدرانية «الحرب والسلام» – ان كانت لغتهم غير الفرنسية وظنوا انه لن يفهمهم احد. لكن ان نظر احد ما او استمع اليهم ابدوا اعجابهم. عندما عرضوا الافلام عن بيكاسو امتلأت السينما هنا التي تعرض فيلم « الطين واللهيب في فالوري » ولم يبق فيها متسع لاحد . ثم جاء دور فيلم كلوزو عن فن بيكاسو – وفي غضون دقائق قليلة كان نصف المتفرجين قد انسحبوا من القاعة . استنتجت شيئين من ذلك : لا شك انه كان صانعا ماهرا ومواطنا جيدا هنا ، ومعظم الناس العاديين لم يبدوا اهتماما يذكر بفنه .

قسطندا : اجرى الراديو والتلفزيون الفرنسي مقابلات مع الجماهير في الشارع . كل واحد اجاب تقريبا متخذا موقفا دفاعيا : « الواقع اننا نحب آثاره المبكرة » .

– تلك كانت الفترة الوردية والفترة الزرقاء. كان في الخامسة والعشرين عندما انتهت. الشهرة شيء غريب ، لان هذه البلدة كانت تعج بالوافدين عليها من كل مكان من اجل بيكاسو ولم يكن بينهم الا اقلية ضئيلة تحب فنه . قابلت فرنسيا رفيعا هرما على بعد ميل واحد من كان . قال : « لن اذهب من هنا الى فالوري من اجله هو . هؤلاء الرسامون يسلون ويمتعون انفسهم. انها فترة انحطاط الفن ». هذا يجعلني اعتقد ان الشهرة قد تكون ضربا من توارد الخواطر العام الذي لم يجر عزله بعد. شيء شبيه بحملات الفلاحين الصليبية في العصور الوسطى .

قسطندا : يكاد الوصول الى بيكاسو يكون متعذرا تماما . كان على الدوام يرى الصنعة ، حتى عندما لم يكن يريد ان يرى احدا آخر ، اما الآن فلا يرضى ان يراهم حتى هم . انه لا يرى راميه . اننا نعمل الآن على « كتاب فالوري » وبيكاسو يعدّ الصور الحجرية ، لكنه يرفض ان يرى الطابع ويتصل به بواسطة البريد . ان يرفض رؤية طابع – رؤية عامل – شيء لم يحدث قط من قبل .

بورتانييه : ولماذا يرى الناس ؟ وبعد ، فهو قد تجاوز الثمانين .

– هل تأثرت ببيكاسو في انتيب ؟

بورتانييه : اذا شئت .

– اني اتردد كثيرا قبل ان احاول ان اصل الى قرار بخصوص بيكاسو ، لاني اعتقد ان

ذلك من شأنه ان يعطي صورة خاطئة عنه. ان كان لي ان اكون صادقا بشأنه فعليّ ان اجد قاعدة ما للحذف والانتقاء ، كما فعل هو . من المحتمل ان معظمنا يجدون نظرية ما ويتمسكون بها — ثم يسمونها « معتقداتهم » . ان بيكاسو يتهرب من التراكيب والصيغ الثابتة الجامدة — التي ان لم اكن مخطئا يسميها «الجمال» . انت في الواقع رسام اكثر منك فخاريا ، تستعمل الفخار كوسيلة لفنك نتيجة لوجود الطلب عليه (بتأثير بيكاسو) . ما رأيك في جدرانيته « الحرب والسلام » في الكنيسة هنا ؟

بورتانييه : رديئة الرسم وعمل عبقري .

— لم افهم .

بورتانييه : بيكاسو رسام رديء بمعنى انه ليس لديه حس بالالوان، لكنه عبقري من حيث الاشكال . الكنيسة رديئة لكنها عظيمة .

— عظيمة لماذا ؟

بورتانييه : انها تهزك .

— لا تهزني انا . انها تصدني . لقد دخلتها اثنتي عشرة مرة . حاولت . لكنها مثل فيلم كلوزو — ترى بيكاسو يصل الى شيء ما ، ومن ثم يشوهه .

بورتانييه : انه رفض الجمال .

— يبدو هذا جنونا في الفنان .

بورتانييه : اسمع . عندما تحاول ان تتعلم البيانو تضع جهدا كبيرا — لكن عازف البيانو في الحفلات يصل الى طبيعة ثانية يعيش فيها ضمن هذه المهارات. ان بيكاسو يستطيع ان يصمم كيلومترات من « الجمال » .

(آنية عظيمة عليها صور بيكاسوية فاحشة مرحة طلقة — اذ لفرشاة بورتانييه الشبيهة بالقلم كل ما لفرشاة بيكاسو ، عدا الاصالة — شاب نحيل عذب اللسان ، ذو شعر كستنائي وعينين زرقاوين ساذجتين ، لكنه قاسٍ مع طفله لدرجة تدعو للاستغراب ؛ الجو جو خيمة غجر. ابدأ بالشك في ان لكل انسان بيكاسوه الخاص، وانه اذ يعرض عليّ «بيكاسو» يعرض عليّ نفسه) .

— اهو حقا اندلسي ؟ تعرف ان امه — وهي التي تحمل اسم بيكاسو — ماريا بيكاسو — كانت من اصل ايطالي . صوره الاولى التي يقلد فيها تولوز لوتريك ، حوالي ١٩٠٠ ، بُعيد وصوله الى باريس ، تحمل توقيع رويز بيكاسو ، لكنه سرعان ما حذف كلمة رويز — طبعا كان يوسه رويز (بلاسكو) استاذا في معهد الفنون في ملقة في الاندلس ، حيث ولد بابلو.

لكن ما ان وصل ابنه سن العشرين وهاجر الى باريس ، حتى كان رويز قد علم الفن في غاليشيا ايضا وفي مدريد وبرشلونة . والسؤال هو هل كان رويز اندلسيا ، او كان مقره في الاندلس فحسب ؟ لو ان بيكاسو ولد بعد ميلاده بعشر سنين، هل كان ليسمى غاليشيا؟ الرسام « الغاليشي » العظيم ؟ ذلك نوع من البشر مختلف كل الاختلاف . انه لامر غريب جدا ان الجميع يتكلمون عن بيكاسو ويكتبون عن بيكاسو ، وانا عاجز تماما عن معرفة ما اذا كان اندلسيا ، مثلا . هل تعرف ؟

كليرغ : لا .

— لا يذكر احد شيئا عن الوتر الايطالي فيه . في حين انك اذا اردت ان تتفهم عبقريا ما فانه يبدو لفكري الساذج ان اول شيء ترغب في معرفته هو اصله . يبدو لي ان النقد البيكاسوي لا يقف على رجلين.

كليرغ : اسأل كوبر . ان بيكاسو يشبه الاندلسيين ، على اية حال .

— اجل — انه مثل بعض من اولئك الشيوخ الاشداء الذين تراهم في اسبانيا. وقد شبهه كاتب ايطالي بقبطان سفينة متقاعد — من جنوى او اليونان او اسبانيا — ذي عينين ثاقبتين نتيجة تفرسه في الفضاء البعيد .

كليرغ : انه كريم جدا .

— هذه الصفة — هي ولا نظاميته — يمكن النظر اليها كصفة اندلسية .

كليرغ : عندما يصاب المصارعون (المصارعون الصغار لا المصارعون الرئيسيون الاغنياء) في قتالهم للثيران هنا في فرنسا فانه يهب لنجدتهم — يرسل نقودا .

— لقد كان كريما معك . عمل الرسوم مجانا لمجموعات صورك الفوتوغرافية ، وارسلك الى امريكا لتعرض صورك في متحف الفن الحديث في نيويورك . قرعت على بابه قبل سنوات قليلة بدون اية توصية او تعريف ، سوى نتاجك — وقبلك في الحال. فتح ذراعيه واسعتين لك — وعندما سألته مدام راميه ، التي كانت موجودة ، ماذا تفعل في باريس التي كانت متوجهة اليها في اليوم التالي ، نسي كل شيء عن نفسه تماما وقال — شيئا واحدا فقط ، اجعلي الناس يتفرجون على صور هذا الفتى . قلت مرة انك اخبرته انك تخشى ان الناس لن يشتروا صورك لانهم لا يحبونها — واجابك بيكاسو جوابا ينطبق عليه هو الى حد ، انه لا اهمية لكونهم يحبونها او لا يحبونها ، وانهم سيشترونها خالما يعتادون عليها . من الصحيح ان صورك الاولى كانت تعتمد مباشرة على فن بيكاسو في فترة رسمه للمهرجين.

كليرغ : اجل ، انه يريد ان يعجب الناس به . اجل انه يحب ان يشكل حلقة من حوله . ربما لو كانت الصور الفوتوغرافية تستقي من منابع اخرى — لكن من وجهة ثانية ، انه يعطف عطفا صادقا على العمال : على الذين يعملون ، الذين يقومون بجهد .

ذات يوم وصلت الى بيته وكانت ما تزال اجزاء من منشور ملصقة على بوابته. قال: «طلبوا مني رسما . لماذا اعطيه ؟ انهم لا يقدمون شيئا — لا يقدمون عملا . انت تجيء اليّ ومعك عمل لتعرضه عليّ . في حالك انت ، انا تحت تصرفك . في اي وقت تريد ، انا مستعد لعمل ما تشاء . لكني لم اعطهم شيئا ، وعندها الصقوا منشورا يقول اني لست كريما . هذا سيء — اليس كذلك ؟ » وهو من ناحية ثانية ، يستطيع ان يكون قاسيا وان يترك الغير ينتظرون اشهرا .

— هل تراه الآن ؟

كليرغ : من المستحيل رؤيته . ذهبت اليه — وقيل لي حين وصلت التلفون عندالبوابة انه يحزم امتعته للسفر الى اليابان . تجليطة .

— ماذا تقول في شيوعيته ؟

كليرغ : هو صديق حميم لاراغون ، وكان صديقا اكثر لايلوار ، وقد التحق كلاهما بالحزب الشيوعي في اليوم ذاته . ربما كان لزاما ان تأخذ بعين الاعتبار وضعه كاسباني معادٍ للفاشية ، في فرنسا التي كان للشيوعيين يد طولى في ادارتها بعد الحرب — فكانوا قد وقفوا في وجه النازيين ، كما فعل بيكاسو ايضا . لكن بروليتاريته ليست موضع شك . انه يقطن دارات فخمة ، لكنه يعيش في مطابخها .

— لماذا الدارات الفخمة ؟

كليرغ : لانه يحتاج الى مساحات شاسعة ليضع فيها اشياءه . انه يملأ بيتا ما بكامله باعماله ، وعندما لا يبقى فيه متسع ينتقل منه الى سواه .

— قلت انه وقف في وجه النازيين .

كليرغ : عرض نفسه لمخاطر كثيرة — لانه لم يكن يسعه ان يبعدوه الى اسبانيا . اما الآن فاسبانيا تريد ان تقيم معرضا كبيرا شاملا لبيكاسو ، تماما كما تحتفل موسكو الآن بيمينيين شهيرين . ووافق بيكاسو في الواقع — مشترطا ان يشمل المعرض « غويرنيكا » و « اكاذيب فرانكو » — فعدلوا عن الفكرة. في باريس اثناء الاحتلال جاءه ضابط نازي وسأله — باعجاب — « اانت الرجل الذي صنع غويرنيكا ؟ » اجاب بيكاسو : « لا . انت هو » . لكن عندما جاءه بعد ذلك جنرال امريكي وقال انه من المدهش ولا شك ان يستطيع المرء ان يرسم مثل ذلك ، رد قائلا: «بوسعك انت ان تدرك ذلك. فهو مثل اطلاق قنبلة ذرية . الشيء المهم هو الا تخطىء الهدف » . عندما شبت الفاشية ، كان جوابه « غويرنيكا » . بعد بودابست كان جوابه الصمت — رفض العمل — وكتب الى مقر الحزب طالبا ايضاحا . رسالة لم تحظ بجواب ، على ما اعتقد . عندما حدث انهيار ١٩٢٦ قال لكانوايلر : « حسنا . غدا تبتدىء من لا شيء. لا احب ان يشار الى ابني على انه ابن اغنى

اندريه سلمون

جوان غري

مودلي

رجل في القرية » .

— لكن بيكاسو لا يعرف الفقر الصحيح . الفقر المدقع بالنسبة له يختلف عنه بالنسبة لسواه . متعته ان يعمل بالضبط ما يريد ان يعمل ، في كل الاوقات. وهذا يعتمد على نجاح قائم على المال .

كليرغ : لكنه كان فقيرا. هو و ماكس جيكوب وليجير في باريس . كان لديهم سرير واحد فقط وكان هو وليجير يتناوبان استعماله .

— ذلك دام وقتا قصيرا جدا .

كليرغ : سنتين او ثلاث سنوات .

— تلك فترة قصيرة جدا من الجهاد بحيث لا تترك اثرا فعالا في حياته الطويلة .

كليرغ : اذا كان هدفك ان تتفهم بيكاسو فربما كان من الطرق الممتعة ان تدرس الصور التي احتفظ بها لنفسه — والتي نشرها في كتاب ضوغلاس ضنكان . لماذا احتفظ بها ؟ لانها خيرة صوره في رأيه ، ام لانها فاشلة فلم يشأ ان يذيعها على الملأ ؟

— انا مخطىء جدا ان لم تكن طريقة بيكاسو ان يذيع كل شيء على الملأ . تناقشنا امس عن احد رسومه المبنية على لوحة مائية « غداء على العشب » وما فيه من صبيانية فجة لا شك فيها — وهذا صنع يد في الثمانين (ناضجة كل النضج) لاعظم فنان حي في العالم ! — لكن الميل الى انعدام النقد الذاتي عميق .

غرغالو

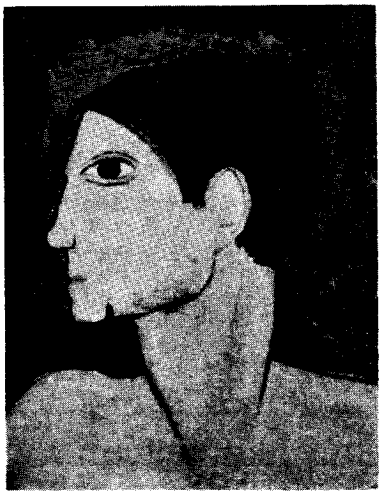

مري لورنسن

فرناند اوليفييه

پيكاسو بريشة سِواه

كليرغ : انه لا يستطيع ان يستمع الى حديث عن الموت او الشيخوخة . ذات يوم ذكر احد اصدقائي وفاة صديقة حميمة لها . وسأل بيكاسو : « ماذا ! أماتت ؟ »وقالت جاكلين للصديق فيما بعد على حدة : « لقد اعطيته سنة . جعلته سنة اكبر . طبعا هو يعرف انها ميتة . ولكنه لا يريد ان يتقبل ذلك ».

جان كوكتو (قبل وفاته باشهر قليلة) —

— انت اعظم مفسر لبيكاسو، ربما بما فيه بيكاسو ذاته . وشهادتك لها قيمة كبيرة، لانك كنت معه جنبا الى جنب طوال الثورة الفنية من ١٩١٦ فما بعد ، ولانك قلت ان مبدأه القائل بالثورة الدائمة والامتاع في الفن كان له ما لم يكن لاي عامل سواه من اثر في عالمك انت الخلاق . وهكذا فانت تعرف من الخارج ومن الداخل معا . عندما ظهر الفن الافريقي ومن ثم السطح ذو الصعيدين بدلا من ذي الثلاثة الصعد ، مع مجيء التكعيبية ورفض المنظور ، وهجر بيكاسو اعماله المبكرة — تأثير تولوز لوتريك ومن بعده المهرجين والشحاذين باللون الوردي والازرق — ما هي النظرية التي صاغها ؟

كوكتو : ليست له نظرية. لا يمكن ان تكون له نظرية لان الخلق ينتهي عند رسغيه. هنا . عقله لا يدخل في الموضوع ، ثمة عزل ، دفاع ، صاغه مع مرور السنين . انها اليد — يد المجد — تخطر على بال المرء يد المومياء المقدسة التي تستطيع فتح اي باب ، لكنها مقطوعة عند الرسغ ...

— اود ان اعرض عليك ما ابتدأت احاول فعله بخصوص بيكاسو ، اتلمس طريقي تلمسا . هذه الاسطر الاولى : بسيطة جدا وغير مكتملة بالطبع . « كل انسان لغز . اذا حللته فكن واثقا من انك صورته تصويرا خاطئا. ليس من حكم بشري من دون ملاحظ ، والملاحظ يكيف الملاحظة ويقولبها. هذا السعي طلبا للوقوف على حقيقة بيكاسو يكيفه ويقولبه (اولا) ظاهرية بيكاسو عندما اصبح يلاحظ فنه هو (ثانيا) الملاحظون الذين استجوبتهم (ثالثا) كاتب هذه السطور الذي لا يستطيع الا ان يستخدم مبدأ الاختيار والانتقاء ، بحيث يستطيع القارىء البصير ان يلاحظ توقيعه بسهولة — » .

كوكتو : (مبتسما ابتسامة متعبة) . هذه اشياء يصعب جدا تحديدها. اذا دقق المرء في دقائقها الصحيحة وجد ان جزاءه على ذلك ان المستمع اليه سينصرف عنه — لانه كسول. المشكلة الرئيسية ان المرء لا يستطيع ان يعرف ، ان مسائل التركيب والصياغة والفن معقدة جدا بحيث لا يستطيع المرء ان يتنبأ ، انه بكل بساطة لا يستطيع ان يعرف . ربما لهذا السبب يقول بيكاسو عن الرسم — انه فن العميان. انه لا يفكر قط ؛ لا يتوقف ؛ لا يحاول ان يركز تعبيره في عمل معين ... ان ينتج طرفة . بالنسبة له ، لا شيء اضافي وزائد ولا شيء له اهمية كبرى .

— ايمكن ان يكون هذا طريقة اخرى للقول بان كل شيء له اهمية كبرى بالنسبة للنتاج العام الشامل — لكنه موزع ومفرق ، وليس مركزا — كما في دافينشي ؟

كوكتو : فعل ذلك مرة او مرتين . صاغ « غويرنيكا » . و « فتيات دافينيون » — التي ، يجب ان نعترف ، كانت بداية الفن البيكاسي ، فقبلها لا يوجد « بيكاسو » مع انه يوجد بيكاسوات . انه يجد اولا ، ومن بعد ذلك يقوم بالابحاث . ليس ، كما يقال احيانا ، بصقل ما يعطيه اياه الحدس — بل بتسوية الاكتشافات التي تكتشفها يداه . من المهم ان نعرف ان هذا يجعل المرء في هرب دائم من ذاته ؛ من « تجربته واختباره » . ان بيكاسو ، مثل اورفيوس ، يلعب على المزمار وتتبعه الاشياء مصطفة خلفه ، الاشياء على اختلاف انواعها ، وتخضع لارادته . لكن ما هي تلك الارادة — ؟

كوكتو : (ايضا) انه يركز ويكرس ذاته تماما لعمله — اكثر من اي شخص آخر اعرفه — بشكل غير انساني! لا يحتاج الى اي شيء خارج عالمه هو المغلق. يصد اصدقاءه — لكنه يقابل النكرات — لماذا ؟ لانه ، كما يقول ، لا يريد ان يغذي شعورا بالامتعاض من اولئك القليلين الذين يحبهم : الذين يستطيعون وحدهم ان يزعجوه . لا يريد ان يغيظه تدخلهم — على الحبل المستمر . لكن — كم هو غريب ان فنه هذا — « المغلق » تماما ، اي الشخصي والمنعزل — يحظى بهذا النجاح الشعبي العظيم . هذا يناقض تماما فكرة صلة الفنان بجمهوره .

— هل تعتقد ان باستطاعتي اختراق هذا العالم المغلق — ان اكون احد هؤلاء الثقلاء الذين تقول انه يقابلهم احيانا لانهم يضايقونه فحسب ، كالذباب ، لكنهم لا يستطيعون ان يعكروا سير عمله — وان استحصل على رأيه في ذاته (المتحيز بدون شك) ؟

كوكتو : لن يقول لك شيئا . انه لا يتحدث عن الافكار مطلقا . وكيف يستطيع ان يفعل . فهي عملية اليدين — يدوية ، تشكيلية . سيجيبك بطق الحنك ، وبنكات وترهات : يعيش خلفها ، في حمايتها ، كما لو كانت اشواك القنفذ . عمله الجبار — انه يعمل اكثر من اي شخص حي آخر — هو هرب من فراغ الحياة ، ومن اي نوع من الشكلية في اي شيء. ان التعبيرية لا تني تعقد الحبل باستمرار — الى ان يظهر انه ربما لم يبق شيء لعقده غير الفراغ . لكن اذا كانت ثورة مونبرناس قد انتهت فان بيكاسو يبدو انه قادر على الاستمرار . صدقني ! — انه لايعرف ماذا يفعل، لكنه يعرف بشكل لا يمكن ان يخطىء ماذا لا يفعل . يده تعرف اين لا تذهب ، تعرف ان تتجنب الشحطة التي فيها ادنى شيء ممكن من العادي او المألوف ، ادنى شيء ممكن من الاكاديمية — تجديد دائم — لكن اين تذهب ، اين يذهب الخط هو المكان الوحيد الباقي فحسب .

— لماذا يؤله البشاعة ؟ اهو تأثير الحرب الاسبانية على نفسيته ؟

كوكتو : اتعرف انه صنع الرسوم التخطيطية الاولى في اتجاه « غويرنيكا » **قبل** الحرب الاسبانية ؟

— كما رسمت انت امثال اوجين القبيح الجشع قبل حرب ١٩١٤ بوقت قصير ، الحرب التي استوحيتهم منها . لكن هذا نتيجة اما للفوضى في تعاقب الزمان او للغيوم التي تتجمع للعاصفة ، التي يحس بها المرء (مثلك او مثل بيكاسو) .

كوكتو : الموحى الحقيقي « لغويرنيكا » كان غويا ...

— ومع هذا ، فان الحرب الاهلية جعلته يلتفت صوب رسوم غويا في اواخر ايامه ؟ يبدو كأن بيكاسو انتقل « جسديا » اكثر مما تبدل نتيجة تأثير فيه ، مع انه ظل في اطار الفن .

كوكتو : الفن ما هو الا تمداد لسياق الحياة فيه ، لا تمييزا عنه . انتقده بوفيه علنا ، وعندما طُلب اليه ان يردّ وان يقول رأيه في فن بوفيه قال: «انا لا انظر الى فنه. لااحب طريقة حياته » . عندما كان يتصرف بشكل قاسٍ وبعيد متناء اكثر من العادة في وضع بشري ، كنت اصارحه بذلك . قال : « انا كما ارسم » . ان المرء ، يا صديقي ، يحتاج الى جرأة كبيرة ليكون اصيلا! عندما يحدث شيء ما لاول مرة فانه يبعث الحيرة في الجميع، بما فيهم الفنان ايضا. لكن عليك ان تتركه —لا ان تعود اليه وتنقحه. طبعا عليك عندئذ ان تطوب « السيء » . لان الجيد هو المألوف . الجديد يتأتى عن طريق الصدف السيئة

فقط . انه ، كما يقول بيكاسو ، « هفوة » . وبتقديس « هفواتنا » فاننا نخلق . يقول : « سهل جدا عندما تكون ذا براعة معينة ان تكون مصيبا ».

— هل يحاول بيكاسو عامدا ان يسيء — يحتفظ لنفسه بالحق بان يسيء كما يفعل صديقه المصارع لوي ميغيل دومينيغان ؟ لقد اخبرتني كم كانت رسومه التخطيطية الاصلية لكنيسة « الحرب والسلم » لطيفة حسنة ، وكيف راح يشوهها تدريجيا الى ان وصلت الى شكلها الاخير — وهو مفزع جدا — وقد اخبرتني انه جعل ماتيس خائفا جدا من ان يقال انه يخلق جمالا تقليديا ، فشوه بدوره كنيسته في فينس .

كوكتو : انه لا يفكر بالارضاء ولا بالاساءة . لا يفكر في ذلك على الاطلاق .

— نعم . في فيلم كلوزو ، يسأله كلوزو فجأة ماذا سيظن الجمهور — فيجيب تلقائيا : « لم افكر قط بالجمهور طوال السنوات الماضية» . تلك لحظة يقشعر لها المرء ، اذا حملت الى اقصى ما يمكن ان تحمل اليه ؛ هي والمشهد الذي يرسم فيه بروعة — بيدين هما من اعظم الايدي في تاريخ الفن — ويطمس ، ويمحو ، واخيرا يقول : « الآن ارى اين انا . الآن ابتدىء » .

كوكتو : نعرف انه قال مرة : « الحقيقة توجد في قعر البئر » .

— انك تذكرني بقول لك انت — ان الفن لا يمكن ان يكون الا تصويرا للذات . لكن ربما كان هذا تبسيطا للاشياء وربما كان ما تقصده قريبا جدا من تعليقك بان اعظم رسوم بيكاسو هي التي تستمد عظمتها من انسجامها التشكيلي ، الذي امكن تحقيقه بمعزل عن الموضوع .

كوكتو : اجل ، ان خنق الموضوع كان نقطة الانطلاق في المغامرة التكعيبية ؛ وان كان اصبح شكليا وستالينيا عند البعض ، فانه لم يصبح هكذا عند بيكاسو .

— اعتقد ان السياق الفني الخفي يمكن التكهن به فحسب ، لا ذكره وشرحه . وهذا لا يجعل مهمتي هنا سهلة ...

كوكتو : ان بيكاسو يهين الوجه البشري — بكل معنى — لكن بمحبة ، حسب طريقته هو .

وانصرف وانا افكر ، ان هذا الرجل بيكاسو ينبغي ان يكون وحيدا — واتذكر قول كوكتو : « ان تشابلن هو كذلك ايضا ، يغلق الباب على نفسه مثل بيكاسو ولا يهتم باصحابه » — اجل ، كيما تختمر الخميرة الداخلية بدون اية لوثة . في تلك الفيلا من تحتي ، ذلك الرجل الضئيل الذي لا يمكن الوصول اليه — وحيد مع فنه . وأنصرف .

بيكاسو : اشياء كثيرة جدا ! اشياء كثيرة جدا ! اشياء كثيرة جدا ! ليس من مكان

يتسع لهذه الاشياء الكثيرة جدا ! (اربعون او خمسون قماشة ، ومشمعات ، وادوات فنية . يبدأ بتفسير بعض اللوحات بما فيها صورة جاكلين التي كانت على منصة الرسم . يتوقف) . صعب تفسير هذه الاشياء .

— من يستطيع ان يفسر بيكاسو ؟

بيكاسو : (ضروري ان نفهم ...)

— هل تستطيع ؟

بيكاسو : (بعد لحظة) احيانا .

عندما دخلنا الغرفة الغريبة القياسات نهض بيكاسو ، وكان عاريا حتى خصره ، يلبس شبشبا وسروالا انيقا ضيقا عند الساقين ، وحيّانا بمرح وعيناه السوداوان تتألقان . قدمني صديقي دورباخ النحات والحائك : « مؤلف امريكي » . واجاب بيكاسو بالانكليزية : « حسنا حسنا . كيف حالك ؟ » ، هازا كتفيه باشارة كأنها تقول : ليأت من يأتي . (يتكلم الانكليزية قليلا ؛ اما جاكلين ، التي تعلمتها في المدرسة ، فتتكلمها بطلاقة) . ذكّرته اننا تقابلنا من قبل — في حلقات مصارعة الثيران . قال بالفرنسية ، التي استعملها من الآن فما بعد : « اتذكرك . اجل ! — بسبب اللحية » . وحالا تملكه الود واضفاه علينا : « انا سعيد جدا برؤيتك من جديد » . وجاءت جاكلين . «عرّفنا ض.ك. في آرل يا سيدتي» . كانت قد مدت يدها ، وقالت بخفر — كما لو كان ممكنا ان لا نعرف — « جاكلين بيكاسو » .

كان البناؤون يبنون بالقرب منا ، يضيفون جناحا آخر للبيت الكبير كي يتسع للتدفق المتزايد من « الاشياء » . كانت لديّ رغبة ان اكون عدسة كاميرا ، اكتفي بالسكون ، واسجل كل شيء ... اذ الم يكن كل شيء مناسبا لبيكاسو ، واية قاعدة للتنسيق والتصنيف يمكن ان تتبع ؟ فوضى . دُمى ، رزم من الصور الفوتوغرافية من نيويورك لم تفتح بعد — تذكرت ان كوكتو اخبرني انه رأى عنده رزمة فيها صليب ظلت هناك سنوات قبل ان تفتح . اربع نظارات للاشكال من النوع الجديد الذي يعيد ترتيب العالم الخارجي كأنه تلسكوبات مشوهة صغيرة — وعرض بيكاسو طريقة عملها وهو منشرح الخاطر (واعاد ذلك لكل من جاء فيما بعد) . — في احداها رأينا بعض ازهار فان غوخ في اناء طويل وجاكلين بيكاسو من اربع او خمس لوحات على الجدار ، تجزّآن ويعاد تركيبهما (لكن جاكلين في لوحة او لوحتين كانت مجزأة اصلا ومعادا تركيبها) .

في البيت غرف ليس فيها شيء مطلقا ، عدا تلفون ربما موضوع على البلاط العاري . مما يوحي بمكان لم ينتقل ساكنوه اليه بعد . الغرف الامامية الكبيرة مصنفة . الغرفة الاولى ، حيث نحن الآن وحيث يلاعب بيكاسو بلثزار ابن دورباخ وزوجته جاكلين ديلا

بوم ، وهو يحمله في ذراعيه ، هي غرفة الاستقبال . الغرفة الثانية تحوي اللوحات. الغرفة التالية تحوي القطع الفخارية . (في الطابق السفلي غرفة مزدوجة وقطع منحوتة) .

من وجهة انسانية ، ليس هناك « لغز بيكاسو » . لا شك انه مفتون ببلثزار ، هذا الطفل ابن الستة اشهر الذي هو اهم شخص بيننا في القاعة. انه بدون منازع رجل ضئيل، ضئيل جدا ، كثير الاسئلة ، متوقد العينين ، ليس فيه تصنع او تظاهر من اي لون — والواقع انه ، كما يتبين تدريجيا ، « غير موجود » حتى لنفسه . انه يصغي الى حديثك ، ويتوقد فيه حب الاستطلاع عما تتحدث عنه — صحيح ان انتباهه في اللحظة التالية يكون قد شرد بعيدا وانك تكون قد تبخرت (لكنه يعود) .

ما الذي في بيكاسو فيجعله يختلف عن كل انسان آخر ؟ انه لا يضجر مطلقا . اختبر ذلك فيما يتعلق بمصارعات الثيران — صحيح. (مثال على ذلك: في مصارعة للثيران في نيم ... المصارعون كانوا رديئين جدا . بيكاسو : « ليسوا رديئين جدا » . انا : « اذا كانوا رديئين فذلك بسبب الريح » . بيكاسو : « لكنهم جيدون ! — وفضلا عن ذلك انهم سيئون بسبب الريح » .) جاكلين هي التي تختلف . فيها شيء محب للنظام والترتيب عندما تظهر معه في الخارج — اما هنا ، وهي حافية القدمين، لابسة سراويل، فهي حسية لحد بالغ . انها « مايا ».

والتقي ببالوما وكلود . بالوما لا تحتفظ بها ذاكرتي بوضوح ، وليس الذنب في ذلك ذنبها هي . لكن ثلاثة يبقون في ذاكرتي منذ ذلك اليوم وكأنما نقشوا نقشا فيها —بيكاسو وجاكلين وكلود — واتبين السبب مع مرور الزمن .

يروي كوكتو في مكان ما انه عندما يبطل بيكاسو ان يكون « بيكاسو » — لانه لا بد له هو ايضا ان يستريح — ويرسم ، مثلا ، رأسا لبالوما او كلود (كما لو انه رينوار تقريبا) ، فان الجميع يشعرون عندئذ بالراحة ويفرحون. وبيكاسو ايضا، ربما. لانه هو اقرب الى ان يكون ذلك . انما — النتيجة ليست « بيكاسو » .

قال لي : « انه شخص آخر الذي يقوم بالرسم ... ان رمبو يتحدث عن الخلق كعمل الشخص الآخر ... وهذا صحيح » . كان يجلس في كرسي الهزاز الشهير امام منصة الرسم وعليها صورة جاكلين التي لم يكن قد فرغ منها بعد — « تسألني ان كان العمل هو الذي يبقيني شابا . اجل . اني اشعر بتعب بالغ اذا لم اعمل . إذا عملت ... فان الشخص الآخر يذهب الى القماشة هناك ويقوم بالعمل عوضا عني ، فبوسعي ان ابقى هنا واقرأ جريدة . وعندما يعود اكون منتعشا وغير متعب ». وايضا : بيكاسو : « لا تستطيع ابدا ان تعمل بالسرعة التي تريدها ! عليك دوما ان تعمل اسرع واسرع ! » انا : « للهرب من الجمال ؟ الجمال التقليدي؟ هذا ما يقال عنك — وهو على جانب كبير من الحقيقة فيما اعتقد.

لكن ماذا تقول عن هذا ؟ ربما كان للحاق بالآخر ؟ بيكاسو (بعد تفكير ... فجأة) : « اجـل . طبعا » . بعد قليل يلمس جبينه الاصلـع ويقول : « انه ليس هنـا . لا علاقة له به ... »

كان الباعث على الضجة في الغرفة الخارجية وصول حشد صغير من الناس—حوالي نصف دزينة من الامريكيين ، يرافقهم كلود وبالوما وابنة جاكلين وهي في الرابعة عشرة ومعها كلبها . وينتعش الجو ويضحي كجو حفلة كوكتيـل ؛ ويطيب هذا لبيكاسو : يبتسم بعفرتة ويفتح عينين واسعتين بالدهشة ، ثم يتلوى وهو يرتدي قميصا مفتوحا طحيني اللون ليستر صدره ، لكنه يلبسه مقلوبا ، مما يستدعي قلبه عليه ، ويساعده في ذلك الجميع . وجعل بيكاسو كل الحاضرين يتفرجون على نظارات الاشكال . واذ ذاك حدثت « مسألة الكلسون » . فقد ظهرت هذه القطعـة من الملابس التحتـانية بشكل غريب في مرسم بيكاسو . واشتدت الفوضى والمرح . لمن تراه يكون ؟ اثنتان من النساء الامريكيات تصلان الى الجواب ذاته ، كل منهما على حدة . تقولان بصوت عالٍ : « لا يمكن ان يكون لي انا : فانا لا البسه ! » (اشك في ذلك) . كان بلثزار قد اختفى في مكان مـا لينام ، لكن واحدا يصيح : لا شك انه لبلثزار وقد تركه هناك . جاكلين بيكاسو : « لا ، لا يمكن ان يكون له ! لماذا ؟ لانه ناصع البياض ! »

وتبدأ الجولة . يقودنا دليل نشيط ضئيل الحجم متوقد العينين ، اسمه بابلو بيكاسو . انه مهتم عمدا بردود فعلنا — بخصوص المواد التي صنعت منهـا قطعه الفنية واساليبهـا بل واحيانا المناسبات التي اوحت اليه بها. واحضرت لوحة من وراء كومة ، وكان على المشمع ذي الجلد الاسود لون قرمزي كان يمكن ان يكون دمـا سال لتوّه من مصارع طعنه الثور — وجرت تعليقات كثيرة على ذلك: ما اشد احمرار هذا الاحمر ! ولعب الطلاء على البلاطات المرسومة عليها جاكلين دوره مرة ثانية ؛ واثار الحماس . وابتهج بيكاسو لردود فعلنا .

عندما نزلنا للطابق الارضي قـال تاجر الفن الامريكي : « سينشئون حلقة تربوية تلفزيونية في امريكا ، وقد عهدوا اليّ ان استفسر عن امكانية الحصول على بومة لبيكاسو كشعار او رمز — انت تعرف ، لتفتتح البرامج بها — انت تعرف ، شارة الحكمة ... » طرح سؤاله بخفر . واجاب بيكاسو بصوت مرتفع : « ولم لا ؟ هذا سهل جدا . اين تلك البومات الكثيرة التي نحتفظ بها هنا يا جاكلين ؟ » بومات ضخمة على رف موقد النـار ، بومات طويلة المناقير من تنك ، كتلة صغيرة غريبة توحي بشكل خفي ما ببومة — وغاب بيكاسو في مقارنة بين البومات وتفحص لها .

ويتابـع قيـادة الجولة . واتبعه مع البـاقين في « متحف بيكاسو » هذا ، واسير من ورائهم كأني نشال في دكان واسترق رؤوس اقلام عن بيكاسو وعن الفن ، ولا اصغي

طيلة الوقت الى المحاضرة . ويقول بيكاسو – عندما نبدي اهتمامنا بنموذج «الرجل الذي يحمل خروفا» – الذي يقوم في الساحة العامة في فالوري وهو والكنيسة المقابلة له مركز القرية– لكنه في القالب الذي صبّ فيه هنا يستخدمه اطفاله كمشجب للملابس وهو مليء بملابس اطفاله المعلقة عليه او المبعثرة فوقه – يضحك : « الفن يتطلب عدم الاحترام ! » وعندما اقول : « اجل ، لا تستطيع ان تبني كاتدرائية به والا احجم الناس عن دخولها ... » ، يلتفت اليّ بابتسامة ذكية تلتمع على وجهه فجأة . وهذا الجامع لصور بيكاسو وقطعه يدرك قيمتها المالية . « حاذر ! لا شيء في السماء يبقيها قائمة مستقيمة . انها على هذه القاعدة – انظر . واذا رميتها فانها تتحطم . وماذا يحدث عندئذ ؟ » – يقول ، عندما يركض احد اولاده ويقترب جدا من قطعة مجنونة متعرجة من النحت ، واقفة كراقصة باليه على ما قد يكون اصبع قدم واحدة .

وعندما نعود للطابق العلوي ، نكون جميعا – على ما اعتقد – متعبين تماما بشكل غريب . وبعد لحظة سيجتمع الامريكيون في غرفة الاستقبال وسيتحدثون بالانكليزية ، كأنهم يفرّجون عن توتر عظيم ..ولعل بيكاسو اقلنا جميعا تعبا وارهاقا .

ويغوص بيكاسو في كرسي الهزاز . ويتمتم ، كأنما لنفسه : « انا اعمل . هذا كل شيء » . ولسبب ما لا اقول له اني جئت اليه مكسرا – كرسم تكعيبي – نتيجة انعكافي سنوات اربعا على الدراسة المكثفة للفن الذي جزأه هو . كانت لليوناردو ، مثله هو ، يدان من اروع الايدي في تاريخ الفن باكمله ؛ وبكسره « لوحدات » الحياة في طمسه لصلات الوصل ، وتحطيمه لعالم الافكار الى اجزاءه المقررة واشيائه المتفرقة ، فتح الطريق للامكانات التي لا حد لها للاختراعات المتناهية و ...

بيكاسو : الرسم يدوي ؛ جسدي. تجد المواد بيديك. لديك قطعة فارغة من القماش . الصورة هي هناك من قبل . تفتش عنها . مثل نبش البطاطا .

– اذاً فهل العبقرية في اليدين ؟

بيكاسو : اه ، ربما لم تكن هناك حتى .

– اذاً ... في مكان آخر ؟ (اشارة بيدي كما لتعني السماء او الاقاصي البعيدة) .

بيكاسو : (بصراحة) . لا ! الانسان هنا – حيث ...

– لكنها اليد ؟

بيكاسو : اجل . (فجأة) نيجنسكي – اه ! كان يشير بيده اشارة كهذه – كأي انسان آخر – لكن اطول ، اطول . لا اقصد من حيث الطول . ان الفرق بين الجيد والرديء اقل من عرض شعرة . نسخ صديق لي صورة لسيزان – نسخة طبق الاصل ، لم تكن لتستطيع ان تميز بينهما . لكن الواحدة كانت جيدة والاخرى كانت رديئة . لماذا؟

تلعب اوركسترا انغاما خالصة – لا فائدة . العلم . الانسان يذهب للقمر ، وبعد ذلك ؟ الانسان لا يتغير ، دائما هو هو ، دائما المقدار ذاته – الجيد والرديء ، مثل حصان او ثور في الحقل – وهذا سبب انعدام التقدم ، واستحالة وجوده . تعرف اني اكره ان انهي الاشياء عندما ارسم . كيف يمكن لاي انسان اي ينهي ان شيء ؟

– انا مثلك اشعر بالشيء ذاته .

بيكاسو : مائة رسام خير من رسام واحد – من اي رسام واحد ، شرط ان يكونوا وحدات في انفسهم . لكن ليس ثمة تكاثر في الكائنات البشرية ... جميع الحكماء منذ– ولا تفسير لمايكلنجلو .

– لكن مايكلنجلو كان هذا حتما ؟ (مادّاً يدّي الاثنتين) .

بيكاسو : ربما . اجل . اجل ، ربما كان ذلك . لكن من يدري ؟

– اذاً ربما كانت العبقرية من يدري اين ؟ يدك ، مثلا . ما يخولنا (عدا عن مجرد مرحلة معرفتنا الحاضرة في علم النفس الآن) ان نقول ان الدافع لها هو « لا وعيك » – هو – ان حضارة اخرى لكانت تقول انه اله خبيث نوعا ما ، او الاله «بان» –

بيكاسو : ان الحكماء لن يخلقوا قط خالقا واحدا . اولئك هناك (يبتسم) هم في اجازة ، لهذا فانهم يظنون اني انا ايضا في اجازة . انا اعمل . (« انا اعمل . هذا كل شيء ») . (انه ينتظر – بصبر شديد فعلا – ينتظر ان ننصرف عنه جميعنا : كي يعود لعمله . وبعد قليل ننصرف) .

لا تستطيع ان ترى كلود بيكاسو بقميصه القطني الازرق، ذي الاكمام البالغة الطول، المفتوح بدون عناية ، حافي القدمين ، بعينيه الكبيرتين السوداوين المتوقدتين ، لا يبتسم مرة واحدة – بدون ان تعرف ان امامك ها هنا – اكثر بكثير مما في الرجل المسن الضئيل – بابلو بيكاسو كما كان في فترة ١٩٠٠ – ١٩١٠ . ربما كان بيكاسو قد اخترع جاكلين – او اختارها – انها في نتاجه من قبل ان يعرفها بزمن طويل – ومع هذا ، فالحسية الهائلة والقوة الفتية التي في «بيكاسو المتأخر» تنتسبان اليها : الى جاكلين: في مشهد ابداع هذه الاعمال ، هذا امر لا شك فيه . ثالوث . هو « بيكاسو » .

اخبرني احد المتذوقين الحقيقيين للفن ، وهو يملك عددا من لوحات بيكاسو ، ان براك هو الذي سيصل القمة في آخر الامر . هل ينتصر التنوع ، او التفرد ؟ ذلك حكم لن نعرفه لانه سيأتي من بعد زماننا . لكنه ربما سيكون حكما تتخذه حقبة من الزمن . ومن المحتمل جدا انه سيتقلب ويتغير من عصر لعصر . « الجيد » الذي لا يدوم .